د. حسين أمين

المرأة بين الشارع والبيت

دار الشروق

المرأة بين الشارع والبيت

الطبعـة الأولى

١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩م

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

إهـداء ..

Dedicated to ..

إلى ذكرى واحد من خيرة رجالات مصر : قاسم أمين . .

رجل تصدى وحده للدفاع عن حقوق المرأة في التعليم والتنوير والمساواة . . في عصر كانت كل واحدة من هذه الكلمات إثماً عظيماً . . وذنباً لا يُغتفرً . . !!

دكتور حسين امين

تقديم ..

Foreword ..

إننى أعرف الأستاذ الدكتور حسين أمين منذ أكثر من ربع قرن . . أستاذاً بارعاً فى مجال الجراحة . . واليوم أعرفه أيضاً مفكراً متعمقا . . وكاتباً قديراً أعتز كثيراً بصداقته . . إننى أراه فى هذا الكتاب وقد أضاف دراسة قيمة للمكتبة العربية . . فيها خلاصة لقراءات شيقة ومتعمقة . . وفى الوقت نفسه مبسطة إلى أقصى الحدود . . بحيث أصبحت فى متناول القارئ العادى . . كما هى فى متناول القارئ المتخصص . .

وإنى أتفق معه تماماً فيما أظهره العلم الحديث من اختلافات كبيرة فى التفصيل الداخلى للمخ والجهاز العصبى بين المرأة والرجل . . وأحسده على صبره وسعة صدره فى الاطلاع على أحدث ما وصل إليه العلم . . قبل أن يكتب فى هذا الموضوع الشائك . . ومما لا شك فيه أن لهذه الاختلافات هدفاً أكيداً للخالق المبدع . . ومردوداً أكيداً على نوعية الاختيارات فى الحياة لكل من الرجل والمرأة . .

لقد غاص فى أعماق النفس البشرية بالنسبة للمرأة . . مؤكداً أن طبيعتها تغلب على التطبع . . وأنها عندما يُترك لها الخيار فإنها تكتشف أن الأمومة

تأتى فى المقام الأول دون أى جدال . . وهو ما ثبت . . ليس فقط من واقع البحوث العلمية . . بل أيضا من واقع تعاملنا . . كأطباء . . مع الإنسان فى حالات الصحة والمرض . .

ولقد أعجبنى كثيرا تعبيره بأن هذه الاختلافات هى حقائق سهلة بسيطة . . لا تقلل من شأن المرأة . . ولا ترفع من شأن الرجل . . بل تجعل كلا منهما . . كما كانا منذ بدء الخليقة . . عنصرين متكاملين يكمل كل منهما الآخر . . سواء فى مجال البيت أو فى مجال العمل . . وإننى أرى أن هذا التعبير يصلح لأن يكون موجزاً لكل ما فى هذا الكتاب . .

إننى أتمنى أن يطلع المسئولون عن التعليم على هذا الكتاب القيم . . ففيه من الاعتبارات العلمية الحديثة ما يمكن الاستعانة به فى وضع البرامج التعليمية للأولاد والبنات . . مما سبقتنا إليه الدول الغربية واليابان . . وأتمنى أن يطلع عليه الآباء والأمهات قبل أن يفرضوا على أبنائهم وبناتهم أنواعاً من الدراسة والتعليم قد لا تتفق مع طبيعتهم . . وقد لا تتفق أيضا مع ميولهم . .

إن أول متطلبات النجاح فى أى مجال فى الحياة هو أن يكون الرجل (أو المرأة) مُحبا وعاشقا للعمل الذى يقوم به . . يجب أن نبصّر أبناءنا وبناتنا بكل مجالات الاختيار . . سواء فى مجالات الدراسة أو فى مجالات العمل . . ثم بعد ذلك نترك لهم ولهن كامل الحرية بعد ذلك فى الاختيار . .

دكتور سيد الجندى

القاهرة ـ مايو ١٩٩٨

مقدمة

Preface

لقد أثبت العلم الحديث فى السنوات العشر الأخيرة ما كنا ندركه بفطرتنا البشرية طول الوقت . . لقد أثبت أن المرأة جنس آخر غير جنس الرجل . . تمتاز عنه فى كثير من نواحى الحياة . . ويمتاز عنها فى نواحى أخرى . . وأن اختلافهما لا يقتصر على الشكل الخارجى للجسم . . بل هو اختلاف عضوى يمتد إلى كل خلية من خلاياها . . بما فى ذلك تركيبة المخ . . والعقل . . والجهاز العصبى . . وطرق التواصل مع الآخرين . . وطرق التصرف والتفكير . .

ومن صالح المرأة ومن صالح المجتمع كله أن يتم الاعتراف بهذه الحقيقة بدلاً من التعامى عنها . . وأن يتم استغلالها بدلاً من محاربتها وكبتها تحت أكوامٍ من شعاراتٍ لا طائل منها . .

إنها حقيقة سهلة بسيطة لا تقلل من شأن المرأة . . ولا ترفع من شأن الرجل . . بل تجعل كلا منهما . . كما كانا دائما منذ بدء الخليقة . . عنصرين متكاملين يكمل كل منهما الآخر . .

وإذا أحسن استغلال هذه الحقيقة فسوف يكون ذلك فى صالح المرأة نفسها قبل أى طرف آخر . . بعكس ما كان يحدث إلى الماضى القريب عندما كانت هذه الفكرة تخميناً لا يستند إلى علم . . واستخدمت كمبرّر لاعتبار المرأة جنساً أقل قيمة . . ومحروما من كل الحقوق . .

إن كل صفحات هذا الكتاب لتلف وتدور حول نقطتين . . الأولى هى تقديم آخر ما أثبته العلم الحديث فى هذا المجال . . فى كلمات سهلة بسيطة . . بعيدة كل البعد عن الكلام المتعالى . . والألفاظ المعقدة . . التى يعشقها أدباء الفلسفة . .

والنقطة الثانية هى الحديث عن أنسب الوسائل لاستغلال هذه الحقائق فى أضواء القرن الحادى والعشرين . . لصالح المرأة أولاً . . ولصالح المرأة ثانياً . . ولصالح المرأة أخيرا . . ! !

دكتور حسين أمين

القاهرة : ٤ مايو ١٩٩٨

شكر.. وتقدير..

Acknowledgement ..

أوجهه إلى دار الشروق العريقة . . على حسن الطباعة . . وجمال الإخراج . . وهو ما يضيف إلى الكتاب سهولة فى الاطلاع . . واستمتاعاً أكبر بكل ما فيه من حديث . . وتعبير . . وصور . .

دكتور حسين أمين

الفصل الأول

غـرائـز البشــر..

ظن الفلاسفة طويلاً أن أطفالنا يأتون كصفحات ناصعة البياض . . نكتب عليها ما نريد . . ولكن أظهر العلم أنهم يأتون وقد غُرِست فى رءوسهم وأجسادهم مئات من الطبائع . . غرسا لا يمحوه بشر . . ولا يؤثر فيه مكان أو زمان . . والغرائز الموروثة فى النفس البشرية عديدة . . ومتنوعة . . وقد تحتاج إلى مجلدات وآلاف الصفحات للإحاطة بها . . ولذلك فسوف لا نتناول منها ببعض الحديث إلا ما يتصل اتصالاً وثيقاً بحديثنا الأصلى . . وموضوعه هو (المرأة . . بين الشارع والبيت . .)

وأول هذه الغرائز نجدها فى مجموعتين من المتطلبات الأساسية . . والتى لا غنى عنها لحياة الإنسان :

إحداهما مجموعة متطلبات جسمانية لا يمكنه أن يعيش دونها إلا ساعات أو أياما على أكثر تقدير . . وتبدأ حاجته إليها ساعة أن يولد . . ولا تنتهى إلا ساعة أن يموت . . وأهمها الطعام . . والملبس . . والمأوى . .

.. food , cover and shelter

والثانية مجموعة متطلبات نفسية أساسية . . لا يمكنه أن يعيش بدونها طويلاً . . وتبدأ حاجته إليها ساعة أن يولد . . ولا تنتهى إلا ساعة أن يموت . . وأهمها طلب الرفقة والخوف من الوحدة . . وكذلك احتياجه لحب وتقدير الآخرين وشعوره باحتياجهم له . .

.. company , and being loved and needed

فالإنسان حيوان اجتماعى بطبعه . . تهلك نفسيته سريعاً إذا فُرضت عليه الوحدة . . أو شعر بتوقف عطائه للآخرين . . أو عدم احتياج أحد إليه . . وإذا هلكت نفسية الإنسان فإنه سرعان ما يفقد الرغبة فى الطعام والشراب أو المتعة . . وسرعان ما يمتد ذلك إلى كل وظائف جسمه . . إلى أن يلحق الجسم بالنفس التى هلكت فعليا منذ عدة شهور أو سنين . .

والوحدة هنا قد لا تكون بمعناها الحرفى . . فقد يتعذب الإنسان من إحساس أليم بالوحدة بينما هو يسير فى أزحم شارع فى نيويورك . . وقد يقضى إنسان آخر شهوراً فى بعثة علمية مثلاً فى وسط الصحراء . . ولكنه ينام كل ليلة هانىء البال يكاد يشعر بقلوب زوجته وأولاده وأبويه وتلاميذه وزملائه وأصدقائه . . تكاد تنبض كلها إلى جانبه فى خيمته الموحشة . .

ويشترك الإنسان مع كثير من الحيوان فى بعض الغرائز والطبائع . . أولها الحاجة إلى الطعام والشراب . . وثانيها غريزة التكاثر . . ويحصل كل كائن حى على طعامه وشرابه بطريقته الخاصة والتى قد تختلف عن طريقة أى كائن آخر . . وطرق الحصول على الطعام والشراب هى طرق غريزية مغروسة فى جينات كل كائن حى منذ وُجد على ظهر الأرض ولم تتغير منذ ملايين السنين . . أما الإنسان فلم يرث فى هذا المجال إلا إحساس الجوع والعطش . . وأصبح عقله هو المسئول عن وسائل إيجاد الطعام والشراب . .

والتى تختلف جذريا من مكان إلى مكان . . بل أصبح يتفنن فى تحسين طعمه وتغيير أشكاله حتى لا يمل . .

ويتكاثر كل كائن حى أيضاً بطريقته الغريزية الخاصة . . وهى أيضاً مغروسة فى جيناته منذ وُجد على ظهر الأرض ولم تتغير منذ ملايين السنين . . وهنا يشترك الإنسان مع الحيوان فى وسائل التكاثر دون أى اختلاف جسمانى على الإطلاق . .

ويوجد ثلاث طرق رئيسية للتكاثر . . أولها التناسل الفردى وفيه ينقسم الكائن إلى اثنين متشابهين فى كل الجينات والصفات . . وهى الطريقة التى تتكاثر بها الكائنات ذات الخلية الواحدة كالبكتريا والجراثيم . . وثانيها هو التناسل النباتى وفيه ينمو كائن جديد مكتمل الصفات من جزء فقط من كائن سابق . . كما نفعل نحن عندما نأخذ فرعاً من شجرة ونستنبت منه شجرة ثانية . . وثالثها هو التناسل الزوجى وهو يستلزم وجود نوعين من كل كائن . . أحدهما ذكر والآخر أنثى . . ويقوم كل منهما بتكوين خلية تناسلية لا تحتوى إلا على النصف فقط من عدد الجينات الموجودة فى باقى خلايا الجسم . . ويتم التكاثر باندماج الخلية التناسلية من الذكر مع تلك التى تصنعها الأنثى . . وبذلك يتم المراد من رب العباد . . ويبدأ نمو كائن جديد يرث نصف صفاته من أمه ونصفها من وأبيه . .

وتستلزم طريقة التناسل الزوجى أن توجد الغرائز اللازمة لتعريف الذكر والأنثى إلى بعضهما البعض . . واجتذاب كل منهما للآخر . . وكذلك التفريق بين الذكور والإناث من الأجناس أخرى سواء فى السمك أو الطير أو الحيوان . . وهنا نرى غريزة مهمة سوف نسميها :

(غريزة التباهى بالمميزات الجسمانية . . لاجتذاب الذكر والأنثى . .) . .

وهى غريزة يشترك فيها الإنسان مع الطير والحيوان . . ففى عالم الحيوان والطير مثلا نجد اللون والريش والشكل والحركات الرشيقة من الذكر . . والحركات الرقيقة من الأنثى . . تهدف كلها لسبق الرفاق فى الحصول على رضا الجنس الآخر من النوع نفسه . . تمهيداً لعملية التزاوج والتكاثر . . والغريزة الموجودة فى كل نوع من الطير والحيوان . . وأيضاً بنى الإنسان . . تجعله لا يتنبه أصلاً إلا إلى الأنثى أو الذكر من نوعه نفسه . . فإذا مرت فرس رشيقة مثلاً أو أنثى بشر جميلة أمام جمع من ذكور الفيلة فلن يعيرونها نظرة واحدة . . وإذا نظروا إليها فلن يكادوا يرونها على الإطلاق . . أما إذا مرت فيلة واحدة لا يمكن أن نرى نحن البشر فيها أى نوع من الحسن أو الجمال . . فإن قطيع ذكور الفيلة سوف تشم رائحتها الزكية (من وجهة نظرهم . . !!) من على بُعد عدة كيلومترات . . وسوف يتسابقون . . أو يتشاجرون . . للحصول على رضاها والقرب منها . .

والصفات الجسمانية للبشر فى هذا المجال تنحصر فى شكل الجسم أولا . . ثم صورة الوجه ثم شعر الرأس ثم الملبس . . والملبس للبشر هو البديل الغريزى الذى اصطنعوه لريش الطير وفراء الحيوان وذيله . .

وتحظى تفاصيل الشكل الخارجى للجسم . . كالاستدارات والانحناءات فى الجسم الأنثوى عند الصدر والظهر والساقين بأولوية قصوى بلا شك . . وتبذل الأنثى قصارى جهدها لكى لا تخفى ملابسها هذه الانحناءات والاستدارات . . ومثلها نجد الكتف العريض والعضلات البارزة فى جسم الرجل . . وليس غريباً أن نرى فنون الباليه . . ومباريات التزحلق على الجليد ice-skating ومباريات الجمباز . . تحظى كلها بقدر عظيم من النجاح واجتذاب المشاهدين من رجال ونساء . . فى كل أنحاء العالم . . لا

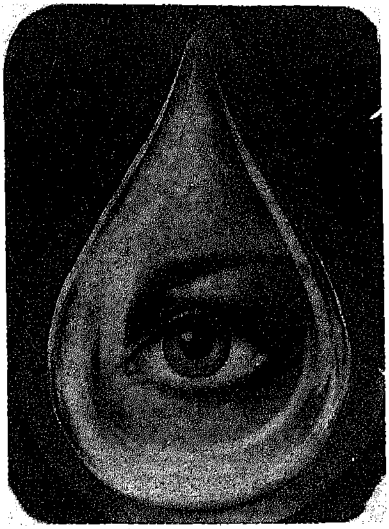
لشيء إلا لأنها تعتمد أكثر ما تعتمد على تقديم الشكل الخارجي للجسم البشرى وحركاته ومهاراته فى إطار من الموسيقى والأضواء الملونة . . بعيداً عن مخاطبة الجنس بشكلٍ مباشر . . يجرح الإحساس . .

وصورة الوجه وشعر الرأس يحتلان المركز الثانى بدءاً من شكل ولون العيون الى شكل الشفاه والخدود . . ولون الشعر ونعومته واسترساله أو تجاعيده . . إلى عشرات من التفاصيل الصغيرة تلمحها عين الرجل أو المرأة . . فتثير فيه أو فيها كل ما يمكن أن يثار من أشعار أو خيالات أو جسد . .

ولا يلزم أبداً أن يكون الجسم حقيقةً موجودة . . بل تكفى صورة لا تكاد تُظهرُ إلا جزءاً بسيطاً من وجه أو جسم . . أو حتى رسم من خط أو خطين . . أو حتى مجرد ظل أو خيال . . أو حتى مجرد صورة لفظية كبيت من أبيات شعر الغزل . .

ويستغل بشر القرن العشرين هذه الصفة الغريزية بأن يستعملوها كعامل مساعد فى جميع وسائل الإعلان والترويج . .

وتعتزُّ أنثى البشر بما يحظى به جسمها من قليل أو كثير من هذه الصفات . . فهى تعتبر صفاتها الجسمانية جزءاً من الصورة الذاتية لشخصيتها . . self-image . . وبالتالى لا تريد أن تخفيها . . بل بالعكس تُركِّزُ عليها وتُظهرها . . وترغب نفسها دائماً فى استعراضها والإعجاب بها سواء لباقى البشر أو حتى لنفسها فقط . . وهذه الرغبة الأنثوية هى جزء لا يتجزأ من الطبيعة البشرية كما خُلقت . . وليس فى إمكان البشر إلغاؤها أو تبديلها . .



قد تكون المرأة قمّةً فى العقل والأداء والخبرة . . أستاذةً جامعية . . أو رئيسة وزارة . . أو مديرة شركة . . أو صاحبة عمل خاص ناجح . . ولكنها فى أعماق نفسها تظل هى هى المرأة . . بالطبيعة التى خُلقَت عليها . . وسوف تدفعها هذه الطبيعة دفعاً إلى البحث لنفسها عن الشريك أو الزوج . . أو الحفاظ عليه إن وُجد . . (ولا يختلف فى هذا اثنان . ! .) وهنا نراها وقد امتدّت أصابعها لا شعوريّا لتُخرجَ المرآة الصغيرة من حقيبة يدها . . ومن المؤكد أنها عندما تنظر فى هذه المرآة فهى لا تستعرض فيها عقلها أو خبرتها . . أو الشهادات التى حصلت عليها عبر السنين . . . !!

وللملابس والزينة والحلى عند المرأة أهمية خاصة . . فهى تستعملها كإطار يُحسّن من صورة الوجه والجسم . . وهى فى هذا لا تستهدف فقط عيون الرجل . . بل تهدف أيضاً إلى التباهى والتفاخر على باقى إناث البشر . . وليس غريباً أن نرى امرأة عندها الرجل الذى تحبه والأطفال والأسرة . . وكل شىء . . ولكنها تنفق الغالى والرخيص على ملبسها وزينتها وحليها لا لشىء إلا لتستمتع بنظرات باقى النساء . . وفى التاريخ القريب نرى مثالاً طريفاً لهذا التنافس النسائى فى عالم الأزياء . . فقد خسرت فرنسا إحدى الحروب بسبب نقص المال فى خزانة الدولة . . وكان ذلك بسبب إسراف جوزفين على ملابسها . . لتغيظ نساء فرنسا وأوربا أجمعين . . ولم يجرؤ أىٌّ من وزراء نابليون على أن يعترض على أوامر رفيقة الإمبراطور . .

ويشترك الرجل والمرأة فى كثير من هذه الدوافع والرغبات . . سواء من الناحية الجسمانية أو من ناحية الملبس . . ولكن لدرجة أقل بلا شك . . لأن دوافع التباهى والتفاخر والاستعراض عند الرجل تختلف اختلافاً كبيراً عن دوافعها عند المرأة . . وتتداخل فيها النواحى العقلية أكثر من النواحى الجسمانية دون أدنى شك . .

ففى الرجل لا تعتمد الصورة الذاتية لشخصيته self-image على شكل جسمه إلا فى المركز الثانى أو الأخير . . وتعتمد هذه الصورة أساساً على إنجازاته وبطولاته يُظهرُها ويتحدث عنها . . وتعتمد أيضا على قدراته العضلية والعقلية . . وعلى قدرته على الحصول على القوت والمال اللازم له ولأسرته .the provider . . إلى آخر ما يميّز الرجل عن المرأة . . سواء فى العصور القديمة . . أو اليوم . . أو إلى نهاية الزمان . . !!

الغرائز التى تفرق بين الكون كله وبين البشر :

لقد أوضحنا فى السطور السابقة أن الإنسان لا يختلف عن باقى مملكة الحيوان فى كل ما يخص غريزة التكاثر والتناسل من الناحية الجسمانية . . وسوف نأتى الآن إلى أهم الصفات الغريزية الموروثة والتى تجعل من الإنسان كائنا حيا متميزاً يختلف اختلافاً جذريا عن باقى الكائنات . . وأهم الغرائز هنا أربعة : أولها اللغة كوسيلة الاتصال بين البشر . . وثانيها العقل . . وثالثها أن الجنس فى عالم الإنسان لم يعد فقط وسيلة للتكاثر فى حد ذاته . . بل أصبح رابطةً نفسية مهمة تربط بين الأبوين لسنوات عديدة يحتاجها الطفل البشرى لتدريب قدراته العقلية والنفسية . . (وقد تحدثنا عن هذا الجانب بالذات فى الفصل الرابع) . . ورابع الغرائز هى غريزة الملكية الخاصة . . وسوف نعطى كلاً منها حقها من الوصف والتعريف . . ولنبدأ باللغة . .

وكلمة اللغة هنا تعنى شيئاً محدّداً : وهو القدرة على التعبير . . (سواء بالنطق . . أو بالكتابة . . أو بلغة الإشارة sign language) عن الحاضر . . والماضى . . والمستقبل . . والقدرة على ربط الثلاثة معاً . .

واللغة هنا لا تعنى القدرة على إخراج الأصوات من الحنجرة . . بل إنها تختلف اختلافاً كليا عن الأصوات التى تطلقها الببغاوات . . أو أصوات التحذير التى تطلقها الحيوانات عند ظهور الأسود أو النمور على سبيل المثال . . أو الأصوات التى ينادى بها الذكر أو الأنثى رفيقه بالليل أو بالنهار . . واللغة فى الإنسان هى الأداة التى يترجم بها أفكاره . . وينقلها إلى الآخرين . . وأيضاً إلى الأجيال التالية . .

وقد أعجبتنى جدا هذه الصورة المعبّرة . . والتى تظهر رهبان الأديرة

يقضون وقتهم فى نسخ الكتب . . وقبل خمسة قرون كانت هذه هى الوسيلة الوحيدة لنقل حضارة السابقين إلى الأجيال التالية . .

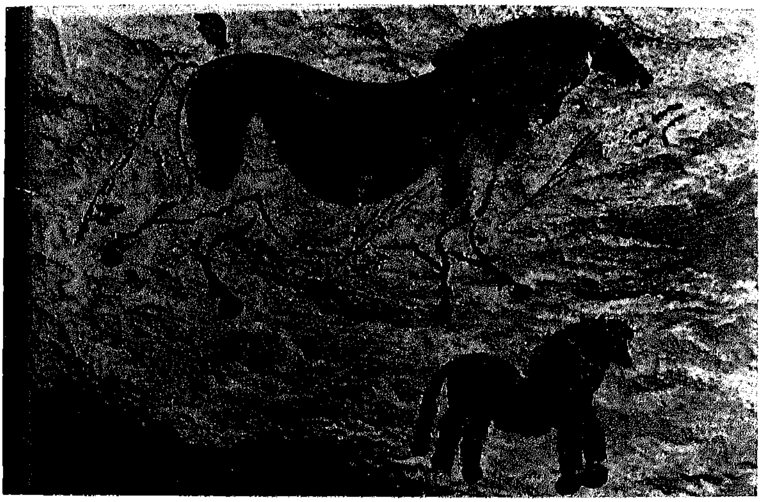


وقد أثبت العلماء منذ عام ١٩٨٣ أن اللغة فى الإنسان مرتبطة بجينات الوراثة . . وأنها ليست مجرد شىء يتعلمه الطفل من أمه وأبيه . . وفى عام ١٩٩٤ صدر كتاب عالمى اسمه (غريزة اللغة the Language Instinct) سُجِّلَ فيه آخر ما وصل إليه العلم من بحوث تبيّنُ أن اللغة هى فعلاً جزءٌ من جينات الوراثة فى الإنسان . . وأن الجزء الذى يُوَرّث هو شيئان الأول هو تركيب عضلات الحنجرة وأحبال الصوت واللسان والأنف وربطها بأعصاب معينة فى خلايا المخ بطريقة لا توجد فى أى كائن آخر . . وثانيها هو الأجرومية grammar or syntax والأجرومية تعنى طريقة تركيب الجملة من اسم . . وفعل . . وفاعل . . ومفعول . . ونحن نرى أن الطفل الآدمى يتمكن فيما بين سن الثانية والثالثة من تركيب جمل مفهومة من اسم وفعل وفاعل ومفعول . . وبعد شهور قليلة من هذه القدرة يتمكن أيضاً من تحديد الفعل إلى حاضر . . وماض . . ومستقبل . . وأن هذه القدرات اللغوية لا تأتى من تدريب أو تعليم . . بل تظهر ذاتيا تماماً كما تظهر غريزة المص بالفم من الثدى عند المولود دون أن تعلمه أمه شيئاً . . بل يكفيها فقط أن تحمله وأن تقربه من جسمها . . وتتولى الغرائز بعد ذلك كل المهام . .

أما الجزء المكتسب من اللغة . . والذى يختلف من لغة إلى أخرى فهى الكلمات نفسها . . فإذا كان فى أسرة عربية فسوف يسمى الشمس شمساً . . وفى إنجلترا سوف يسميها sun . . وفى فرنسا سوف يكون اسمها so-leil . . إلى آخر الكلمات فى عشرات القواميس . . والتى ليس لها أى علاقة بأساس اللغة syntax . . وهو واحدٌ فى جميع اللغات . . حتى فى لغات الكريول Creole . . وهى لغات القبائل المعزولة فى جزر المحيطات . . والذين يؤلفون لأنفسهم كلمات لا يفهمها غيرهم على الإطلاق . . وعند

دراستها فيما بعد بواسطة علماء اللغات وجدوا أن لها قواعد الأجرومية نفسها من اسم وفعل وفاعل ومفعول . . مثل باقى اللغات . .

وقد أظهرت هذه البحوث أيضا أن وجود اللغة فى جينات أبناء آدم وحواء هو شىء يختلف اختلافاً جذريا عن أى وسيلة للاتصال بين أفراد أى نوعٍ آخر من أنواع الكائنات الحية . . وبدأ علماء الإلحاد يعترفون . . (فى استحياء . . !!) أن ظهور اللغة . . والتعبير بالرسم . . فى الإنسان هو طفرةٌ كبيرة . . وقفزة فجائية طويلة المدى . . لا تتناسب مع نظريات التطور التى يدّعون أنها تشمل الإنسان أيضا . . والتى تستلزم التدرج فى التطور من نوع إلى نوع آخر من الأحياء . . وقد كان أقدم مظاهر هذه الطفرة هو ما اكتشفناه من رسوم فى كهوف جنوب فرنسا وأسبانيا . . (وهذه صورة واحدة منها) وحدد العلماء تواريخها كلها بما لا يزيد عن خمسة عشر إلى عشرين ألف سنة فقط لا غير . . كأول علامة على ظهور كائن جديد . . عاقل متكلّم . ومعبّر . . اسمه الإنسان . . !!



ونأتى إلى ثانى الفروق.. وأهمها.. وهو العقل..

وكلمة العقل هنا تعنى شيئاً محدداً وهو : (أولاً) القدرة على استنتاج أفكار جديدة . . من حقائق سابقة . . والنتيجة المباشرة لذلك هو قدرة الإنسان على الابتكار والاختراع . . (وثانياً) قدرته على نقل خبراته هذه التى يكتسبها أثناء حياته . . إلى الآخرين . . وأيضا إلى الأجيال التالية . .

ولا يوجد مثل هاتين القدرتين عند أى حيوان أو نبات أو كائن حى . . وقد تعمّدنا الاقتصار على هاتين النقطتين فقط . . لكى لا ندخل فى المتاهة التى يتعمدها علماء الإلحاد عندما يتحدثون عن الفرق فى الوعى con-sciousness عند الإنسان وعند الحيوان . . وعن الفروق فى حجم وتركيب المخ . . وعن المقارنات بين عمل المخ وعمل الكومبيوتر . . ومحاولات خلق ذكاء صناعى artificial intelligence . . إلى آخر هذه المتاهات . .

ولو كان الإنسان يعتمد فى بقائه survival على قدرات جسمه لهلك نوعه منذ زمن بعيد . . ولكان هذا النوع من الكائنات أسوأ مثال لعملية التطور . . التى يدعونها . . والتى تقول بالتطور إلى الأقوى . . لأن البقاء للأصلح . . حسبما يقولون . . !! فالإنسان دون شك هو من أضعف الكائنات جسماً . . و من أقلها سرعةً فى الجرى . . ولا يوجد عنده سلاح مثل أنياب الأسد . . أو ذيل التمساح . . أو فك القرش المفترس . . !! وجلده عار . . معرض للشمس والبرد والمطر . . وليس فى جسمه مخزن للطعام كسنام الجمل . . فإذا انقطع عنه الزاد والماء يوماً أو يومين هلك . . وإذا طلعت عليه الشمس هلك من الحر . . وإذا غابت عنه هلك من البرد . .



(حياة الإنسان منذ عشرة آلاف سنة . . فقط لا غير . .)

ولكن الإنسان استعمل عقله . . فأصبح بقدرة قادر مَلكاً للأرض والسماء . . واستعلى بهذا العقل على جميع الكائنات الأخرى . . وصاد منها طعامه . . وقتل منها ما يخيفه . . وذلّل منها ما يحتاجه فى الزراعة أو فى الركوب . . ودعونا نتأمل هذه الصورة لما كانت عليه حياة الإنسان منذ عشرة آلاف سنة فقط . . لنرى مقدار التغيير الذى أدخله إلى نظام حياته . . وكيف طوّع الكون من حوله من أجل أن يتلاءم مع جسمه الضعيف . .

بل دعونى أشير إلى نقطة أخرى . . هى غنيةٌ عن أى بيان . . إن جميع الكائنات الحية من نبات أو حيوان ما زالت تعيش بالطريقة نفسها التى عاش بها أجداد أجدادها عبر ملايين السنين . . محكومةً بجينات الوراثة تنقل الصفات نفسها والعادات نفسها والتصرفات نفسها من جيل إلى جيل . .

فالنملة والبعوضة اليوم هى النملة نفسها والبعوضة نفسها التى وجدناه متحجرةً فوق لحاء شجرة ماتت منذ مائتى مليون سنة . . والأسد هو الأسد . . والطيور تصنع أعشاشها . . وحيوان القندس يصنع السدود فى الماء . . بالطريقة نفسها التى كانت تُصنع بها الأعشاش والسدود منذ مائا مليون سنة دون أى تغيير . .

وحتى لو اكتسب أى من هذه الكائنات خبرةً مختلفة أثناء حياته . . كمثل حيوانات السيرك على سبيل المثال . . فإننا نجدها غير راغبة . . ولا قادرة . . على نقل حتى هذه الخبرة التافهة إلى الآخرين . . أو إلى الأجيال التالية . .

ونأتى إلى ثالث الفروق.. وهو غريزة الملكية الخاصة..

فالطيور والحيوانات تنشغل بالبحث عن الطعام أولاً بأول ، ليلَ نهار . وتنشغل برعاية الصغار حتى تعتمد على نفسها . . ولا تعتبر أنها تملك شيـ فى هذا الكون غير جسمها فقط . . تدافع عنه وتحميه إلى أن تموت . . وبعض الحيوان قد يحمى مساحة من الأرض تقيم فيها إناثه أثناء موسم التزاوج . . ثـ ينساها عندما ينتهى الموسم . .

أما الإنسان . . وما أدراك ما الإنسان . . فقد اكتشف فى أعماق نفسـ أشياء عجيبة أهمها عجزه عن العيش وحده فى هذا الكون . . وحاجته إلـ باقى الرفاق ليتبادل معهم المنافع . . هذا يصيد وهذا يزرع وذاك يبنى . ويقايض كل منهم الآخر بما يجيده من عمل . .

وعندما كثر البشر وزاد التعامل بينهم فى جميع مجالات الحياة أصبحـ طريقة المقايضة قاصرة عن متابعة هذا النشاط . . فاخترع الإنسان شيئا اسـ المال ليغنيه عن وسيلة المقايضة . . وقد يكون هذا المال فى شكل معادن ثميـ

كالذهب والفضة . . وقد يكون فى شكل أوراق مطبوعة . . لا تكتسب أى قيمة إلا باعتراف باقى البشر بها كوحدة لهذا الشىء الذى يسمى بالمال .

والوسيلة الوحيدة للحصول على هذا الشىء المسمى بالمال هو بالعمل . . فإذا كان الإنسان نشيطاً وأنجز أعمالاً كثيرة حاز بها مالاً أكثر من احتياجاته فإنه يختزنه . . ويسميه (فائض المال) . . وبهذا الفائض من المال يمكنه أن يشترى وأن يمتلك أرضاً أو بيتا أو قطيعا من الأبقار والأغنام . . وبذلك أصبح فى إمكان كل إنسان . . حسب نشاطه . . أن يقتطع جزءاً ولو تافهاً من محتويات الكرة الأرضية تحت اسم ملكيته الخاصة . . ويعترف له باقى البشر بهذه الملكية . . ويحميها صاحبها ويدافع عنها ويسعى باستمرار للاستزادة منها . . ثم توريثها لأولاده عندما يواريه التراب . .

وقد اخترت هذه الصور الثلاث بالذات لأنها تُعبّر بمنتهى الجمال عن كل ما قلناه . . وتكاد توجز قصة الإنسان . . منذ خُلق . . وإلى نهاية الزمان . .







(ثلاث صور . . . تكاد توجز قصة الإنسان . . .)

فى جميع الكائنات الحية . . نباتاً أو حشرةً . . أو الطير والحيوان . . تقتصر غريزة الجنس والتكاثر على إيجاد البذرة . . أو الصغير . . وأحيانا رعايته إلى أن يقف على قدميه فقط . . . ثم بعد ذلك ينساه أبوه وأمه تماماً . . ويُترك وحده لغرائزه الطبيعية . . والتى لم يكد يتغير منها أى شىء منذ ملايين السنين . . . أما فى الإنسان . . . والذى وُجدَ (. . أو . . خُلِقَ . .) فجأة منذ ١٥ ألف سنة . . فقد اختلف الأمر . . . :

أولاً : أودع الخالق المبدع خلف هاتين العينين الواسعتين لهذا الطفل . . غريزة أصيلة . . تُمكِّنُه من تَعَلُّم اللغة . . فهماً . . ثم نُطقاً . . ثم كتابةً . . فى زمن بسيط . . . وأصبحت هذه اللغة هى الوسيلة للتعبير عن شىء يختلف تماما عن باقى الكائنات الحية . . وهو العقل . . .

ثانياً : أودع الخالق المبدع فى أبيه وأمه ثلاثة أشياء تربطهما بهذا الصغير إلى الأبد

(١) أودع فيهما ما جعل غريزة الجنس تتعدَّى وظيفة التكاثر . . لتصبح رباطا يربطهما معا من أجل صالح هذا الصغير . . والذى يحتاج لعدة سنوات من الرعاية المستمرة الحميمة . . ليمكنه رعاية نفسه بعد ذلك . . . !

(٢) أودع فى نفس كلٍّ منهما غريزة التملُّك . . وبالتالى الحرص على توريث ما يملكان . . إلى هذا الصغير . . .

(٣) أودع فى نفس كلٍّ منهما غريزة الرغبة فى الخلود . . ولها مظهران . . أولهما الخلود بإنجازات العقل والعمل . وثانيهما الخلود بالجسد . . ومظهره الوحيد . . هو هذا الصغير . . .

ثالثاً : ونتيجة لكل لذلك . . نجد الأب والأم . . معاً . . يستعملان وسيلة

اللغة . . لإعطاء الصغير كل خبرات البشر السابقين جميعا . . ليستعملها . . ثم يزيد عليها . . ثم ينقلها الى من يليه . . . . . .

وقد ثبت أن غريزة الملكية الخاصة هذه هى غريزة أساسية فى تكوين البشر . . وأنها مغروسة غرساً فى النفس البشرية . . وليست عادة يكتسبها الإنسان من حياة المجتمع . . وقد ثبت هذا بالتجربة عبر قرون التاريخ . . وعبر آلاف من كتب الفلسفة والفذلكة . . وعبر حروب ومآس لانهائية . . وعبر نظريات خيالية . . كان أولها خيالات جمهورية أفلاطون . . وآخرها خيالات السادة ماركس وأنجلز ولينين . .

وحيث إن وسيلة الحصول على الملكية الخاصة هى المال . . وأن وسيلة الحصول على المال هى العمل . . فإن العمل فى حد ذاته يستحق فصلاً مستقلاً من الحديث . .

الفصل الثانى

العمل .. كغريزة أساسية فى الحياة ..

أظهرت دراسات علوم الطبيعة وجود ما يسمى « سلسلة الطعام للكائنات الحية» food chain .. ففى الأنهار والبحار مثلاً نجد الأسماك الضخمة تأكل الأسماك الكبيرة . . وهذه تأكل الأسماك الصغيرة . . وهذه بدورها تأكل النباتات والطحالب والأعشاب المائية .. والكل يتوالد ويأكل بعضه بعضاً فى توازن طبيعى دقيق جعل عالم الأحياء المائية ثابتاً متوازناً عبر مئات الآلاف من السنين .. والحياة فى البريّة أيضاً فيها التوازن نفسه والنظام نفسه . . بين النباتات من جانب . . وآكلات العشب من جانب ثان . . وآكلات اللحم من جانب ثالث . .

ومن معجزات التوازن الدقيق بين الأحياء يكفى أن نذكر مثلاً واحداً من عالم الطفيليات . . وهو دودة الإكينوكس التى تعيش أصلا فى أمعاء الذئاب . . فهى تُنزلُ بيضها على الحشائش لتأكله الأغنام والأبقار . . وتتحول داخل أجسامها إلى أكياس هيداتيد تقتل الحيوان . . لكى يحضر صاحب المصلحة الأصلية . . وهو السيد الذئب . . ليأكلها بالهناء والشفاء . . وعند ذلك تفقس أكياس الهيداتيد داخل أمعاء الذئب لتصبح

دودة إكينوكس جديدة . . ولا توجد وسيلة أخرى لهذه الدورة الثلاثية إلا من خلال أجساد الأغنام والأبقار . . فتصبح هذه الدودة وكأنها أحد المفاتيح التى تضبط التوازن بين آكلات العشب . . وآكلات اللحم . . وسبحان ذى الخلق والإبداع . . ! !

وتوجد فى كل كائن حىّ أجراس إنذار قوية متسلّطة . . تدق عدة مرات فى اليوم الواحد لتأمر صاحبها بالبحث عن الطعام . . فاذا كان طيراً فإنه ينهض من عشّه فوراً باحثاً عن حب يلتقطه أو دودة يأكلها . . ومثله جوارح الطير . . ومثله الحيوان . . ومثله أيضاً بنو الإنسان . . ويعد هذا الحافز من أهم ما يدفع الإنسان دفعاً إلى العمل . . وإذا قسنا على ما نراه كل يوم من طبائع البشر . . فإنه من المؤكد أن نسبة كبيرة منهم كان من الممكن أن تقضى معظم الوقت على شاطئ الحياة تتفرّج على باقى البشر . . ولكن عضّة الجوع تمنعهم من ذلك . . وتجبرهم على المشاركة فى مهرجان الحياة طوعاً أو كرهاً . .

والطعام هو أول الأساسيات اللازمة لحياة الإنسان . . وقد رأينا من الأساسيات أيضا الملبس والمسكن . . وكلها أشياء نادراً ما تُمنَح منحاً بلا مقابل . . ولا توجد فى أكوامٍ على النواصى يلتقط منها المارّة ما يشاءون . . ! !

ولكى يحصل الإنسان عليها يجب أن يقدم المقابل لباقى البشر : مالاً يحصل عليه بطريقة أو بأخرى . وأفضل الطرق وأيسرها هو «العمل» . .

وينقسم العمل إلى أربعة أنواع واضحة المعالم كما يلى :

أولاً : العمل الذهنى أو العقلى . . والإبداع الفنى . .

ثانياً : العمل اليدوى والعضلى . .

ثالثاً : الارتزاق من شكل الجسم . . والوجه . . والصوت . .

رابعاً : الارتزاق من الجسم نفسه . .



(أنواع العمل التى يمارسها البشر . .)

وسوف نبدأ برابع الأنواع :

وهو نوعٌ من العمل قد يبدو غريباً لأول وهلة . . وهذا النوع من العمل يتدرج فى صلته بالجنس عدة درجات متفاوتة . . وأقلها قيمةً فى نظر معظم الناس هو احتراف البغاء . . وهنا يكون العمل ومقابل العمل صريحاً واضحاً

بلا أى مـواربة . . ومن الطريف أن التـاريخ يقـول إنهـا من أقـدم المهن التى عرفتها البشرية . . وأنه قد وصل الأمر بها فى بعض الحضـارات القديمة أن اعتُبرت نوعاً من العبادات . . وكأن المرأة تقدم جسدها قرباناً للآلهة . . !!

وبعض البلاد تصرح بالبغاء كمهنة مشروعة مع بعض القيود الصحية . . ولكنها فى معظم الدول مهنة غير مشروعة . . مما يسمح أحيـاناً بأن يكون المتكَسِّب منهـا ليس فـقط المرأة التى تعـمل بـالبغـاء . . بل أيضـاً القـوّادون والبلطجية وتجار الرقيق الذين ينظمون المهنة فى الخفاء . .

وقـد يمكننا أن ندرج الزواج نفسـه تحت هذا العنوان أحـيـاناً . . فـالشـابّة الصغيرة التى تتزوج رجلاً فى السبعين من عـمره . . عمداً مع سبق الإصرار والترصّد . . إنما تمارس نوعا من البغـاء . . وإن كان مقنَّعاً ومشروعاً . . وممزوجـاً بالمكر والدهاء والتـخطيط . . !! ولا يـمكننا أن ننسى أن فى نسبـة كبيرة من إناث البشر على مستوى العالم كله (وخاصة فى الدول الفقيرة) مازال الزواج يمثل الوسيلة الوحـيدة للقـمة العيش . . والضـمان الوحـيد للطعام والكساء . . والمأوى والأمان . .

ومن وسائل العمل التى تدخل أيضاً تحت هذا الباب نرى استغلال النساء فى أعمال الجاسوسية والمؤامرات . . ونرى أيضاً بعض أنواع الكتابة والأدب والشعر والقصص والأفلام . . عندما نجدها تفيض بكل ما يلفّ ويدور حول الجنس وتعتمد اعتمـاداً كليّا على ذلك فى مبيعات الكتـاب أو شباك تذاكر السينما التى تعرض الفيلم . . ولا يمكننا اعتبار هذا النوع من الأدب عـملاً ذهنيا وعقليا صرفاً . . بل إنه لا يختلف فى رأينا عن عـمل الراقصة الشرقية التى تدور فى آخر الحفلة تجمع النقود . .

والنوع الثالث للعمل هو :

الارتزاق من شكل الجسم.. والوجه.. والصوت :

وهنا يستغل الرجل أو المرأة شكل الجسم وجاذبيته لعيون البشر فى أنواع من الأعمال تستلزم ذلك . . والأمثلة لهذا كثيرة . . ومنها أولاً النساء اللاتى يعملن كموديلات للرسامين والنحاتين . . وثانياً نوعية من الأعمال تستلزم الرقّة وحسن المظهر كأوّل وأهم شرط للعمل . . كما فى أقسام التسويق . . والعلاقات العامة . . والسكرتارية . . ومضيفات الطائرات وعارضات وعارضى الأزياء . . إلخ إلخ . . وثالث الأمثلة هو العاملات والعاملين فى الإعلانات بالتلفزيون والصحف والمجلات والإذاعة . . سواء كان ذلك بالصورة (استغلال الشكل الخارجى للجسم) أو الصوت (استغلال نغمات الصوت الأنثوى الرقيق أو الصوت الرجالى الرخيم) . . ورابع الأمثلة هو فنون الرقص بأنواعها . . ومنها الصريح بلا مواربة كبعض الرقص الشرقى . . ومنها ما هو ممزوجٌ بفنون أخرى كتنسيق حركات الأعداد الكبيرة فى الاستعراضات الراقصة . . أو موسيقى جميلة تصاحب الرقص كما فى الباليه أو فى شكل تنافس رياضى كما فى مباريات الجمباز . . إلخ

وآخر الأمثلة هو أنواع الرياضات كالملاكمة والمصارعة بالذات . . وفيها نجد أن ما يجذب عشاقها هو مزيج من غرائز العنف والإثارة . . وأيضا استعراض الجسم البشرى . . وليس غريباً أن نرى النساء يحتللن أكثر من نصف المقاعد فى مباريات المصارعة الحرّة العنيفة للرجال . . وليس غريباً أيضا بدعة لعبة المصارعة الحرة العنيفة للنساء . . ! !

وهناك دائماً خيط رفيع لا يكاد يُرى بين الاعتماد فى الرزق على شكل

الجسم . . وبين الارتزاق من الجسم نفسه . . ونجد قصصاً أو مسرحيات أو أفلاماً لا تنتهى . . تدور كلها حول امرأة . . على سبيل المثال . . تعمل فى أحد هذه المجالات الخمسة التى ذكرناها . . ثم ترفض بإباء وشمم أن تعبر هذا الخيط الرفيع . . !!

والنوع الثانى من العمل هو العمل اليدوى physical work :

وبالرغم من التسمية الواضحة فإننا نرى إعادة تعريف العمل اليدوى : «فهو العمل الذى يختص بتنفيذ مهام سبق تحديدها والتخطيط لها بواسطة أناس آخرين . . وكل ما يتطلبه التنفيذ هو استعمال اليدين والعضلات والعينين وباقى الحواس . . (مع درجة قليلة من التفكير) . . فى تنفيذ العمل المطلوب» . .

وتندرج تحت هذه التسمية جميع أعمال الصناعة والزراعة والمناجم والمبانى والتنظيف والحراسة ورصف الطرق . . إلخ إلخ . . وكذلك معظم الأعمال الروتينية التى يقوم بها موظفو الأعمال الكتابية والحسابية ومكاتب الحكومة وما أشبه . . فكلها يمكن إدراجها أيضا تحت بند العمل اليدوى . . فالتعريف السابق ذكره ينطبق عليها تماماً . . وكل الفرق هنا هو أن العضلات المستعملة هى أصابع اليد التى تمسك بالقلم . . أو التى تدقّ أزرار الآلة الكاتبة أو أزرار جهاز الكومبيوتر . .

وكلما زادت نسبة إعمال الفكر وتحمّل المسئولية فى أى عمل يدوى كلما صار أقرب الى العمل الذهنى والعقلى والإبداعى . . والعكس بالعكس . . فى كل المجالات . .

إن المؤهلات المطلوبة لأى عمل يدوى لا تزيد عادةً عن قوة العضلات وسلامة الذراعين والعينين والحواس . . وهى مؤهلات يحصل صاحبها عليها مجاناً دون أى جهد من جانبه . . وبالتالى نجد أن العدالة تحتِّم أن يكون العائد المادى الذى يدرُّه هذا النوع من العمل هو أقل دون شك من العائد المادى الذى ينتج عن العمل العقلى والذهنى على سبيل المثال . . فالمؤهلات المطلوبة هنا معقَّدة وصعبة يبذل فيها صاحبها مالاً ودراسةً وجهداً وتدريباً لكى يتأهل لها . .

ولا يعنى هذا تقليلاً من قيمة العمل اليدوى فى مجموع الأعمال اللازمة لصالح المجتمع ككلّ . . فالعمل بأنواعه (الذهنى . . واليدوى . . والجسمانى . .) يمكن تشبيهه بمائدة كبيرة ذات أرجل ثلاث . . ولا يمكن أن تستقيم الأمور لأى مجتمع دون توافرها جميعاً بلا شَك . .

ولا يخلو العمل اليدوى الصِّرف من التشويق والإثارة أحيانا . . وذلك حسب نظرة صاحبه إليه . . ويحضرنى هنا قصة تُروَى عن أحد الحكماء مرَّ على مجموعة من العمال يقطعون الأحجار . . فتجاذب أطراف الحديث مع ثلاثة منهم . . قال الأول إن عمله مُملٌّ ومرهق وسخيف . . وأنه يشعر وكأنه مسجون يعمل بالأشغال الشاقة . . وقال الثانى إن عمله شاقٌّ حقا . . ولكنه مسرور لأن الرزق الذى يحصل عليه ينفقه على تعليم أولاده . . أما الثالث فقال إن عمله شاق فعلا . . ولكنه مسرور لأنه يشارك فى بناء المبنى الجميل المرسوم على لوحة فى الموقع . . وقال أيضا إنه يقطع الأحجار بأشكال مختلفة حسب نظرته إلى الرسم المذكور . . لكى يُسَهِّلَ عملَ البنَّائين من بعده . .

فالرجل الأول تعيسٌ دون شك . . أما الثانى فهو مملوءٌ بالأمل . . . ! !

أما الثالث فهو فعلاً سعيدٌ بعمله . . ويرى فيه فنا وجمالاً وهدفاً بالرغم من مشقته الكبيرة . . !! ومن الممكن لأى إنسان يعتمد رزقه على العمل اليدوى أن يختار كيف يعيش . . إما تعيسا . . أو مملوءاً بالأمل . . أو سعيداً بعمله . . وبالحياة . . !!

ونصل أخيراً إلى النوع الأول من العمل :

العمل العقلى.. والإبداعى :

إن ما يميّز هذه الأنواع من العمل لهو أولاً استعمال الفكر والاستنتاج لحل المشاكل . . وكذلك إعمال العقل لخلق أفكار جديدة أو أشياء جديدة لم تكن موجودة من قبل . . وأخيراً نرى قمّة العمل الذهنى فى الربط بين أشياء عادية يراها الآخرون ولا يستنتجون منها شيئاً . . ثم الخروج منها بنظرية أو فكرة تثبت صحتها الأيام فيما بعد . . كما فعل نيوتن وأينشتاين . . وغيرهما المئات والآلاف . .

ومن ذلك نرى أنه ليس كل من جلس إلى مكتب محاطاً بالسكرتارية والمساعدين يؤدى عملاً ذهنيا وعقليا أو إبداعيا . . والعكس بالعكس . . فقد نرى رجلا يمسك فأساً يدق به الارض . . ويكون عمله هو قمة العمل الذهنى والعقلى والإبداعى . . فهو باحث آثار على سبيل المثال . . يتحسّس الأرض ويقارنها بما عنده من معلومات عن كشف أثرى مهم . .

وسوف نجد أن أهم مجالات العمل تحت هذا العنوان هى ستة : المهن الاجتماعية . . المهن الإبداعية . . المهن الإدارية . . المهن القتالية . . المهن الهندسية والميكانيكية . . وأخيراً المهن التجارية . .

فأولاً المهن الاجتماعية: وتتميز كلها بأنها تحتاج إلى درجة كبيرة من

التواصل النفسى والتعاطف بين صاحب المهنة ومن يتعاملون معه . . وأهم أمثالها مهنة التعليم بكل مراحله من الطفولة إلى الجامعة . . ومهنة الطب بشكل عام . . ومهنة التمريض . . ومهنة الخدمة الاجتماعية والطب النفسى . . وكذلك مهنة السكرتارية والعلاقات العامة (وهى مهنة ذات قواعد وأصول ولا تعنى مجرد الرد على التليفونات . . !!)

ثانياً المهن الإبداعية : كالكتابة . . والموسيقى . . والرسم . . والنحت . . وفن العمارة (كفرع مستقل تماماً عن مهنة الهندسة) . . وتتميز كلها بأنها تحتاج إلى درجة كبيرة من العمل المنفرد دون إزعاج حتى من أقرب الأقربين . . وقد ينعكس هذا على روابط الأسرة فى بعض الأحيان . .

ثالثاً المهن الإدارية . . وقد أصبح فن الإدارة فى هذا الزمان مهنة قائمة بذاتها . . تعترف بها الدول المتقدمة . . وتستلزم وجود موهبة خاصة تُمكّن صاحبها من إدارة جريدة صحفية أو مصنع أو مدرسة أو وزارة أو شركة أو بنك أو مستشفى أو فندق أو ملهى . . وكلها بالكفاية نفسها . . لأن فن وموهبة الإدارة لا تعتمد على نوع العمل . . بل تعتمد على قدرة صاحبها على السيطرة على نوعية البشر الذين يمارسون هذا العمل . . أيا كان العمل . .

رابعاً المهن القتالية . . كمهنة الجراحة . . والمهن العسكرية . . وقيادة الطائرات . . وتستلزم كلها موهبة القلب المتحجر . . والقدرة على تنحية العواطف جانبا عند اللزوم والقدرة على التفكير ذى الأبعاد الثلاثية . . والقدرة على سرعة اتخاذ القرار وعدم التردد حتى دون الحصول على جميع المعلومات . .

خامساً المهن الهندسية والميكانيكية . . وأهم متطلباتها هو قدرة التفكير ذى الأبعاد الثلاثية 3 - dimensional وموهبة الرياضيات الحديثة . .

سادسا وأخيرا المهن التجارية . . أو ما يطلق عليه الآن (مهنة رجال الأعمال) . . ويمكننا إيجازها كلها تحت أربعة مسميات . . هى النقل . . والصناعة . . والتجارة . . والمقاولة . . وتحتاج كلها إلى قدرة نفسية على اتخاذ قرارات تحمل نسبة صغيرة أو كبيرة من المخاطرة . .

ويأتى العائد منها من أربعة طرق . . أولها نقل السلعة من مكان إلى مكان فيزيد سعرها . . وثانيها تصنيع السلعة من مكونات رخيصة الثمن فيتضاعف سعرها أضعاف أضعاف سعر المكونات الأصلية . . وثالثها مهنة الوساطة بين البائع والشارى . . وتستلزم الإلمام بالمصادر المختلفة لكل سلعة (أو خدمة) وأماكن ومواعيد الاحتياج إلى كل منها . . ورابعها مهنة المقاولة . . ويعنى ذلك أخذ مسئولية إنجاز عمل ما من الألف إلى الياء . . مقابل عائد يكون عادةً أكثر بكثير مما سوف يتكلفه صاحب المهنة فعليا من مال . . ويستحق صاحب المهنة هذا العائد الكبير مقابل قدراته الإدارية والوساطية فى ربط جميع الأجزاء والتفاصيل اللازمة لإنجاز العمل المطلوب . .

ولعلنا نختم هذا الموجز بتعليق طريف . . وهو أن هذا البند السادس . . والذى يشمل المهن التجارية الأربعة . . النقل والصناعة والوساطة والمقاولة . . هو المصدر الوحيد الممكن لتكوين ثروات طائلة تأخذ صاحبها إلى مجموعة المليونيرات . . أو خسارات طائلة تصل بصاحبها إلى المحاكم والسجون . .

وهذا بخلاف جميع البنود الخمسة السابقة . . حيث صاحب المهنة يكون فى العادة من ذوى المكانة العالية فى المجتمع . . ولكن دخله لا يزيد عن

الدرجة المتوسطة أو المرتفعة نسبيا . . ولا يصل أبدا إلى تكوين ثروات طائلة من المهنة فى حد ذاتها . .

وترجع أهمية هذا الفصل من الكتاب عن أنواع العمل المختلفة إلى ما سوف نتناوله بالحديث عن نوعية الأعمال التى تصلح للمرأة والتى لا تصلح لها . . وهو حديث شيق وطريف . . لن نتحدث فيه إلا عما أثبته العلم الحديث بعيدا عن كل العواطف والسياسة . . والفلسفة . . !!

ولهذا الحديث أيضاً بقية مهمة طريفة . . وهى أنواع العمل المختلفة والتجارة من خلال المنزل . . وسوف نتعمد تأجيل هذا الجزء من موضوع العمل إلى فصل مستقل (الفصل التالى) لأنه يرتبط بالفصول القادمة أكثر من ارتباطه بموضوع العمل فى حد ذاته . .

الفصل الثالث

العمل والتجارة من خلال المنزل..

Home - based business

ويندرج تحت هذا العنوان عدد كبير من أنواع العمل والتجارة يقوم بها الفرد دون أن يغادر منزله . . وهو أصلح أنواع التجارة والنشاط لأصحاب المعاشات وكذلك للسيدات إذا أردن الجمع بين العمل ورعاية المنزل والأسرة . . وأيضا لكثير من أنواع النشاط التى يمكن ممارستها كعمل إضافى فى المساء على سبيل المثال . .

وأمثلة هذا النوع من العمل كثيرة ومتنوعة . . ومنها على سبيل المثال الأعمال الفنية والإبداعية كالكتابة أو الرسم أو النحت . . وكلها أعمال لا تستلزم بطبيعتها مواعيد محددة . . ولا يحتاج صاحبها إلى مكان آخر غير منزله . . ولا تحتاج إلى شىء غير وجود الموهبة . . إذا وُجدت . . ثم صقلها بالدراسة والمران والتدريب . . والعائد المادى منها قد يتراوح بين أقل القليل إلى ألوف الألوف . . دون أى مقياسٍ مسبق . . !!

ومنها أيضاً الأعمال اليدوية العادية . . كصنع ملابس التريكو أو خياطة الملابس أو صنع أنواع اللعب والهدايا الصغيرة من البلاستيك أو الخشب أو الفخار . . . إلخ إلخ ثم بيعها إلى الشركات الكبيرة التى تقوم بتوزيعها . .

وقد انتشرت هذه النوعية الآن فى بلاد الشرق الأقصى كالصين وسنغافورة وماليزيا وبنجلاديش . . بل أصبحت بعض الشركات العملاقة للملابس الجاهزة هناك تعتمد اعتماداً كليا على هذه الوسيلة . . فيقوم مهندسوها بعمل الباترونات والموديلات . . ثم يتم توزيع ماكينات الخياطة والتريكو على النساء فى بيوتهن . . . . ثم تقوم سيارات الشركة بتجميع الإنتاج حسب مواعيد متفق عليها . .

وفى مصر نرى بعض الفنادق تلجأ إلى هذه الوسيلة أحياناً وذلك بالتعاقد مع بعض السيدات لإعداد نوعياتٍ معينة من المأكولات أو الحلويات إذا عزّ وجود من يتقنها من الطباخين . .

ولكى نتصور ما يمكن عمله من خلال المنزل فى هذا المجال . . فسوف نستعرض بعض القصص التى نجحت نجاحا كبيرا . . وكان أساسها أفكارا عادية للغاية . . (ولعلنا نذكر الحكمة التى تقول بأن الذكى هو من لا ينتظر فرصاً خارقة للعادة . . بل هو من ينتهز فرصا عادية ويحولها إلى أشياء خارقة للعادة . .)

القصة الأولى :

مهندسة كهرباء فى بلدة ريفية فى إنجلترا وجدت نفسها خبيرةً فى إصلاح الأجهزة المنزلية المستعملة كالغسالات والثلاجات وما أشبه . . فخصصت غرفتين فى بدروم منزلها وبدأت تعلن فى الجرائد عن شراء الأجهزة التالفة . . وطبعا كانت تحصل عليها بأبخس الأسعار . . وكانت تجد أن نصفها تقريبا لا يحتاج إلا إلى إصلاحات من أبسط ما يكون . . ثم

تبيعها بعد ذلك بأضعاف ما اشترتها . . مع ضمانها الشخصى لمدة خمس سنوات . . وقد اكتشفت أن العملاء يثقون فى وعودها وضمانتها أكثر بكثير مما لو كانت رجلا . . وأسرّ إليها أحد العملاء بأن الإنسان العادى لا يتصور أن المرأة بطبيعتها يمكن أن تمارس الغش أو التدليس فى مجال العمل كما يفعل بعض الرجال . . ! !

وفى البداية كانت تخصص المساء فقط لهذا العمل . . ولكنها عندما ذاقت طعم النجاح تفرغت كليّا له . . وبعد سنتين كانت مبيعاتها السنوية تقارب نصف المليون من الجنيهات وصار عندها سكرتيرة للاتصالات واثنان من المساعدين . . . .

القصة الثانية :

سيدة توفى زوجها وتزوج أولادها وخرجوا من المنزل وبقيت وحدها فى بيت طويل عريض . . ولم تكن فى حاجة إلى المال قدر حاجتها إلى العمل والنشاط نفسه . . وكانت عندها موهبة فى أذواق الملابس فاستغلتها لأول مرة فى حياتها حيث قامت بجمع أكبر كمية ممكنة من الملابس المستعملة والتى تكاد تكون جديدة من المصادر التالية :

الملابس التى تلبس مرة واحدة كفساتين الزفاف أو التخرج . . الملابس التى تلبس بضعة شهور فقط كملابس الحوامل وملابس الأطفال . . دواليب كاملة للملابس يستغنى عنها الذين ينتقلون من مسكن إلى مسكن أو عند وفاة صاحبها أو صاحبتها . . وأخيراً من إعلانات وأوكازيونات التصفيات والبواقى بالمحلات الكبيرة . .

واستخدمت السيدة اثنتين فقط من الخياطات . . واشترت آلة لتسجيل المكالمات للرد على التليفون فى حالة غيابها . . وأخذت فى فرز هذه الملابس وتبويبها وتعديل ما يلزم عليها وتصوير بعضها من أجل الإعلانات فى الجرائد والمجلات . . وسرعان ما بدأت طلبات الشراء تنهال عليها . .

وفتحت أيضا إمكانية تأجير بعض هذه الملابس للمناسبات الخاصة . . وفتحت أيضا إمكانية استبدال بعض هذه الملابس بملابس أخرى يحضرها عملاؤها ويدفعون مالاً مقابل هذا الاستبدال . . ثم خصصت غرفة من أجل حقائب اليد للسيدات (وكان أكثرها كالجديد لأن المرأة تغير حقيبتها لأنها ملَّتها فقط وليس لأنها أصبحت قديمة . .)

ولما زادت مبيعاتها اشترت آلة للفاكس ألحقتها بالتليفون لتسهيل التعامل مع عملائها . . ثم وسَّعت نطاق أعمالها إلى شراء مجموعات لعب الأطفال وآلاتهم الموسيقية التى يستغنون عنها بأرخص الأثمان . . وخصصت غرفة خاصة فى المنزل لها للبيع او الاستبدال . . ثم توسعت إلى شراء مجموعات كتب الأطفال وخصصت لها غرفة أخرى . .

(وكتب الأطفال بالذات هى من السلع التى لا تكاد تستعمل إلا قليلا لأنهم يكبرون عليها سريعا . . وتتجمع وتتجمع فى كل منزل ويعلوها التراب إلى أن يُلقى بها فى صندوق القمامة يوماً ما . . ! !)

وكانت السيدة فى كل مرة تشترى مجموعة من الملابس من أحد المنازل تجد أصحابها يعرضون عليها أيضاً مكتبة المنزل كاملةً بما فيها من كتب تجمعت على مدى السنين . . ولكنها لم تكن تتقن التعامل فى الكتب . . فباعت الفكرة إلى صديقة لها . . وسرعان ما حولت الصديقة بيتها إلى شبه مكتبة جمعت فيها آلاف الكتب بأبخس الأثمان . . وأدخلت أسماءها وأرقامها فى

كومبيوتر صغير لم يكلفها كثيرا . . وأخذت تكسب كثيرا من رغبة الناس فى تبادل الكتب بعد قراءتها . . ومن بيعها أيضا . .

والملحوظة المهمة جدا هنا هى أن هذه السيدة (أو صديقتها) لم تتكلف أى رأس مال تقريبا . . ولم تغرق نفسها فى المظاهر المكلفة لرجال الأعمال كالسكرتارية والفراشين وأثاث المكاتب الفاخر . . ولم تستخدم إلا عقلها ، وذوقها ، وموهبتها ، وزادت فى تكاليفها تدريجيا مع كل زيادة فى نجاح العمل . .

وبعد بضع سنوات كانت أرقام مبيعاتها تفوق كل خيال . . وكان عندها عشرة من السكرتارية والمحاسبين والمساعدين . .

القصة الثالثة :

كان مسكن الرجل وزوجته فى شقة واسعة فى أحد العمارات الكبيرة فى وسط الحى التجارى بمدينة لندن (ولم يكن حيا تجاريا يوم سكنوا فيه منذ خمسين سنة . .) فاستغل الرجل حاجة الشركات الصغيرة وأصحاب الأعمال الجدد إلى عنوان للمراسلات فى وسط المدينة . . وكانوا يتعاقدون معه لمجرد استعمال عنوان مسكنه ورقم تليفونه فى اتصالات الشركات والعملاء . .

وكان كل ما اشتراه هو خط آخر للتليفون وماكينة تسجيل المكالمات وآلة فاكس . . وكان يتبادل هو وزوجته تلقى المكالمات والبريد . . ثم إعادة إرسالها إلى أصحابها . . وملأ هذا العمل أوقاتهما نشاطا وحيوية وسعادة . . وملأ جيوبهما بالمال . . وعندما وصلا إلى سن السبعين كان عندهما أربعة من الموظفات يتبادلن الرد على الرسائل والمكالمات . . !

وقـد يصلح هذا العـمل فى أوربا اكثـر منه فى بلادنا لأن جـزءاً كـبيـرا من التجارة هناك يتم بواسطة الإعلانات ثم تلقِّى الطلبات بالبريد . . أما هنا فكل من يريد العـمـل فى التـجـارة يلتـزم أول مـا يلتـزم بإعـداد المكـان . . (وقـد أصـبـحت أسـعـار العـقـارات فى عنان السـمـاء . . !) ثـم تأثيـثـه وملئـه بالموظفين . . كل ذلك من قبل أن يدخل جيبه قرش واحـد . . وهى طريقة مقلوبة دون شك . . ولو تعـودنا على طريقة التجارة من خلال البريد mail orders لأمكن لآلاف من الأفكار والأعـمال الصغيرة أن تجد طريقـهـا إلى النور . . ولخُلقَت طبقة كـاملة من أصـحـاب الأعـمـال الصـغيرة تعتـمـد عليهم بلدان أوربا كثيرا فيما هى فيه من ازدهار . .

القصة الرابعة :

هى مثل لما يمكن أن يحدث لـو اتبعنا طريقة التجارة بالبريد فى بلادنا . . فقد ملَّت إحدى الكاتبـات الناشئات فى جلاسجو بأسكتلندا من إرسال كـتبهـا إلى كبـار الناشرين . . وكـانـت فى كل مرة تتسلم خطاب الاعـتـذار عـن نشـر إحدى قصصها تصاب باكتئاب يدوم معها شهراً أو شهرين . . وأخيرا قررت أن تصبح هى الناشر لنفسهـا . . وقامت بطبع إحـدى قصـصهـا طبـعة بسيطة لـم تكلفهـا كـثـيـرا وسـجَّلت عنـهـا إعـلانا صـحـفـيا شـيـقا مثيرا فى جرائد بلدتهـا وحـددت فى الإعـلان سـعـرا بسـيطا للنسـخـة يرسل بشيك إلى عنوان منزلهـا . . وفى خلال أسبـوع كـان قـد وصل إليهـا ما يقرب من خـمـسـمـائة شيك . .

وحرصت على إرسـال النسخ بالبريد بنفسها مغلفةً تغليفا نظيفـا . . وبعد أسبـوعين سـجلت إعـلانا آخر . . ووصل إليـهـا تقـريبـا الكمية نفسـهـا من

الطلبات . . وكانت القصة جيدة فعلا . . أغرت أحد الذين قرءوها بأن يكتب عليها تعليقا في إحدى المجلات المحلية . . وفى اليوم التالى وصل إليها ما يقرب من ثلاثة آلاف طلب ونفذت طبعتها الأولى . . وكانت بداية نجاح لا مثيل له . .

وبعد بضع سنوات من النجاح كتبت كتابا عن هذه الطريقة من النشر الذاتى self - publishing تشرح فيه كل التفاصيل التى تفتح طريق النجاح . . بخلاف الموهبة طبعا . . وهى الوحيدة التى لا تُشرَحُ أو تُباع . . !!

القصة الخامسة :

لفتاة عشقت البيانو منذ طفولتها وأجادت كل فنون العزف عليه . . ونالت فيه الجوائز العديدة طوال سنين دراستها الثانوية والجامعية . . وبعد تخرجها زاولت كثيراً من الأعمال فى البنوك والشركات فى بلدتها الصغيرة فى الريف الفرنسى . . ولكنها لم تجد نفسها أخيراً إلا عندما بدأت تعطى دروساً فى الموسيقى والبيانو لأطفال الجيران . . ثم جيران الجيران . .

ثم تزوجت من شقيق أحد تلاميذها . . وكان عنده بيت كبير وحديقة واسعة أقفلا جزءاً منها ليصبح ملعباً كبيراً به عشرة أجهزة بيانو وأورج . . وأصبح عشقها للموسيقى هو موردها الرئيسى . . وهو فى الوقت نفسه المكان الذى يلعب فيه أطفالها ويلهون ويمرحون . .

فى السنوات الأخيرة عمّ استعمال شاشات الكومبيوتر على مكاتب الموظفين والعاملين فى معظم الشركات العملاقة . . وفجأة تنبّه المديرون إلى

فكرة من نوع السهل الممتنع (.. !!) يمكنها توفير ملايين الدولارات دون أن تخسر الشركة شيئاً من طاقة الإنجاز والعمل.. وقد بدأ تنفيذ الفكرة أولاً على استحياء فى إحدى شركات مدينة شيكاغو.. ثم فى مدينة هونج كونج.. حيث تُباع مساحة المكاتب والعقارات بالسنتيمتر المربع وليس بالمتر المربع.! وقامت الشركة بتركيب شاشات الكومبيوتر فى منازل بعض الموظفين والموظفات.. مع توصيلها فى الوقت نفسه بالكومبيوتر الرئيسى فى مبنى الشركة.. وأصبح هؤلاء الموظفين يؤدون أعمالهم فى المنزل..

وكان التزامهم الوحيد هو إنجاز العمل المحدد فى موعد محدد.. دون أى ارتباط بساعات العمل فى الصباح أو المساء.. ولا يذهبون إلى مقر الشركة إلا فى مواعيد الاجتماعات الدورية أو عند اللزوم.. ونجحت الفكرة إلى أبعد الحدود.. وسرعان ما انتشر تطبيقها فى مئات الشركات فى جميع الدول الصناعية.. وتسابقت الموظفات بالذات على هذا النوع من العمل.. فهو يتيح لهن لأول مرة فى التاريخ رعاية منازلهن وأطفالهن وأزواجهن مع الاحتفاظ فى الوقت نفسه بالعمل والمورد المالى الإضافى.. والانتساب إلى شركة عملاقة تعطى الكثير من المميزات للعاملين..

لقد أسهبت قليلاً فى استعراض أمثلة من مجالات للعمل يمكن للمرأة أن تزاولها من خلال منزلها.. لأننى أعتقد أن فى هذا المجال بالذات يكمن المخرج السهل للمرأة.. سواء كانت أمّا.. أو زوجةً لم تنجب بعد.. وهو يتيح لها أن تستغل جميع طاقاتها ومواهبها وما تعلمته من خبرة يدوية أو شهادات ودرجات علمية.. وتتيح لها ممارسة هذه النشاطات فى مواعيد تحددها لنفسها.. وبمزاجها وطريقتها الخاصة.. بحيث يمكنها الموازنة بين عشقها الأول وهو الأسرة وبين ما تهواه أو تجيده من إبداعٍ أو فنٍّ أو عمل..

وإننى لأناشد كل مسئول فى الهيئات الحكومية أو الخاصة التى تهتم بصالح المرأة والطفل أن يتأمّل هذه الأمثلة مرةً أخرى. . فمن الممكن إيجاد ملايين من فرص العمل لنساء بلدنا فى شكل عشرات وعشرات أخرى من هذه الأمثلة. . والتى يمكن أن يتفتق عنها أذهان المسئولين وأذهان النساء أنفسهن. . سواء في الريف أو في المدن. .

وسوف يوفر هذا الكثير الكثير مما يُنفَقُ على دولاب موظفى الدولة. . ومما يُنفق فى المواصلات ذهاباً وإيابا. . ومما يُنفق فى مصروفات الحضانة لأطفال العاملات. . وما يُنفق على شغالات ودادات تزداد أجورهن كلما زادت عندهن درجات الحقارة والأمّيّة. . والجهل. . !!

والأهم من كل ذلك أن مجالات العمل من خلال المنزل سوف تتيح للنساء الراغبات فى الجمع بين البيت والعمل أن يحققن ما يردن. . وفى الوقت نفسه سوف تحفظ للمرأة كرامتها. . وتسهل عليها رعاية أسرتها وزوجها. . ورعاية الأجيال القادمة. .

الفصل الرابع

الأسرة .. الخلية الأساسية لكل البشر..

إذا تأملنا كل كائن فى هذا الكون . . سواء كان من البشر أو الحيوان أو الطير أو الأسماك والحشرات والجراثيم أو النباتات بأنواعها . . لوجدنا خالقها المبدع قد أودع فى كل منها ما يضمن لنوعها التكاثر . . وبالتالى البقاء على ظهر الأرض عبر الزمان والمكان . . وإلا لكانت قد هلكت كلها وانتهى أمرها منذ زمن طويل . .

وفى عالم الحيوان والطير تقوم الأم . . أو الأبوان معاً . . برعاية الصغير فى فترة يعجز فيها عن تولى أمور نفسه . . يدفعهما إلى ذلك طبيعة وغريزة لا يملكان لها أمرا . . وتقتصر هذه الفترة على قدرة الصغير على المشى أو السباحة أو الطيران وقدرته على تغذية نفسه . . وهى كلها قدرات جسمانية يكتسبها الصغير بسرعة . . . وبعدها يصبح حيواناً أو طيراً غريباً عن أبويه تماماً . . وقد أثبتت الملاحظات والدراسات الكثيرة أن الإحساس بالصلة أو القرابة يختفى بعد ذلك تماماً . . سواء عند الصغير أو عند الأبوين . .

أما فى عالم البشر فإن القصة تختلف عن ذلك تماماً . . فالفترة التى يعجز فيها الوليد عن تولّى أمور نفسه تمتد إلى سنوات عديدة . . وهى تشمل إلى جانب القدرات الجسمانية (كالمشى) قدرات أخرى عقلية ونفسية لا توجد

في عالم الحيوان والطير . . والجسم البشرى بالقياس إلى باقى أنواع الحياة على ظهر الارض يُعدُّ من أضعف المخلوقات . . !! فجلده عار دون شعر أو فرو يحميه من تقلبات الطقس . . إذا طلعت عليه الشمس هلكَ من الحر . . وإذا غابت عنه مات من البرد . . وليس عنده مخالب النمر يدافع بها عن نفسه . . ولا أسنان الأسد يصيد بها طعامه . . ولا أطراف القرد وذيله يتقافز بها فوق الشجر . . ولا يملك مخازن للماء والطعام كسنام الجمل أو دهون الدببة . . ولو كانت إمكانات الجنس البشرى قد اقتصرت على قدراته الجسمانية لكان قد هلك نوعه من على ظهر الأرض منذ آلاف السنين . !!

ولكن الخالق المبدع عندما حرم الإنسان من كل هذه المميزات الجسمانية منحه فى اللحظة نفسها العقل واللغة . . وبهما أصبح عقل الإنسان هو المسئول عن طعامه وشرابه . . وبالعقل صنع الإنسان كساءً يحميه . . ومسكناً يأوى إليه . . وسلاحاً يدافع به عن نفسه . . ويصيد به طعامه . . وبالعقل واللغة أمكن للإنسان أن يُطوّع الكون من حوله ليتلاءم مع جسمه الضعيف . . بعكس جميع الكائنات الأخرى والتى تجد نفسها تحتاج إلى التطور جيلاً من بعد جيل لكى تتلاءم مع تغيرات البيئة عبر القرون والعصور . .

ومن كل ذلك نرى أن ما يحفظ الجنس البشرى هو قدراته العقلية . . وليست القدرات الجسمانية بأية حال من الأحوال . . ويحتاج تدريب القدرات العقلية والنفسية الى سنوات وسنوات من الرعاية الحميمة من كل من الأب والأم سواءً بسواء . . ولذلك فإن كل الغرائز المغروسة فى الكائن البشرىّ تعمل على ضمان استمرار هذه الرعاية لعدة سنوات . . وذلك بالمبادئ التالية :

المبدأ الأول :

هو أن الجنس فى حياة البشر قد أصبح فى حدّ ذاته رابطةً قوية بين الأبوين . . وأمراً واقعاً . . محبوباً ومرغوباً . . ومنفصلاً تماماً عن موضوع التكاثر . . ولم يعد يتقيد بزمان كما فى إناث الحيوان فى فترة التبويض . . ولا يتقيد أيضاً بمكان كما فى الطيور والأسماك التى تهاجر إلى مكان معين لا يتم التزاوج إلا فيه . .

وقد أجرى العلماء دراسة علمية مقارنة بين الجنس فى الإنسان . . وبين الجنس فى أقرب الحيوانات إليه . . وهو عالم القرود . . وأمكنهم إثبات الحقائق التالية :

(١) الوضع الطبيعى للممارسة فى عالم القرود هو وجهاً لظهر . . إما فى الانسان فقد تغيّرت زاوية المهبل تغيُّراً كبيرا إلى الأمام . . بحيث أصبح الوضع الطبيعى هو وجهاً لوجه . . (مما يؤكد أهمية الجزء العاطفى والنفسى فى اللقاء) . .

(٢) للوجه (والشفتين بالذات) صلة كبيرة بمُقَدِّمات اللقاء وجهاً لوجه . . بينما أن شفتى القرد لا دخل لها فى اللقاء على الإطلاق . .

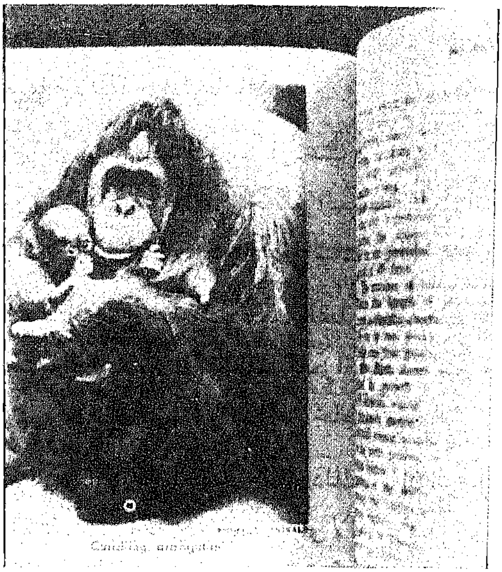
(٣) يختلف ثديا المرأة كثيرا فى الحجم والاستدارة والشكل عن ثديى أنثى القردة . . والتى لا تكاد تظهر على صدرها نهائيا بل قد يؤثر هذا الحجم أحيانا على سهولة رضاعة الطفل الآدمى من الحلمتين . . بعكس حلمة ثدى القردة والتى تتميّزُ بالطول وسهولة إرضاع الوليد الى أقصى حد . . وهذا يبيّن أن للثدى فى الإنسان أهمية أخرى . . (عدا وظيفة الإرضاع) . . فى اللقاء وجهاً لوجه . .

(٤) تمتد مقدمات اللقاء . . ثم اللقاء نفسه . . إلى فترة غير قصيرة فى الإنسان . . أما فى عالم القردة فإن اللقاء يحدث بشكل عابر ودون مقدمات . . ولا يستغرق أكثر من بضع ثوان . . يعود بعدها القردان إلى ما كانا يفعلان من قفز أو أكل وكأن لم يحدث شىء . .

(٥) عضو الذكورة فى الإنسان أكبر بكثر جدا منه فى عالم القرود . . حتى فى ذكر الغوريلا . . (بعكس ما يظن كثير من كُتَّاب السينما الذين يكتبون قصص الخيال . . . !!)

(٦) لأنثى عالم القرود والغوريلا فترات محدودة (أثناء التبويض) لا يمكن فيما عداها أن يُمارسَ أى جنس نهائيا . . بعكس عالم الإنسان والذى يمتد فيه هذا النشاط إلى أى يوم من أيام الشهر . . حتى فى أثناء فترة الحمل . . .

(وهى كلها حقائق تؤكد أن الجنس فى حياة الإنسان هو رباطٌ وثيقٌ للأسرة تتجاوز أهميته عملية التكاثر فى حد ذاتها . . دون أى شك . .)



(أنثى قرد الأورانجوتان . . وطفلها . . وثدى الرضاع . .)

المبدأ الثانى :

هو أن ممارسة الجنس بين البشر تشمل جوانب نفسية وعقلية أكبر بكثير من مجرد الجانب الجسمانى فيها . . فأولاً الطبيعة الفطرية للرجل العادى الطبيعى لا تنجذب ولا تتفتح أصلاً . . إلا إذا أشعرتها الأنثى بالاستجابة والقبول . . (وكل ما عدا ذلك فهو أمراض عنف نفسية . . أو فى أثناء الحروب) . . أما ثانياً فهو أن الطبيعة الفطرية للمرأة لا ترسل إشارات

الاستجابة والقبول أصلاً إلا للرجل الذى يشعرها أولاً بالاحترام لنفسه ولها . . ثم بعد ذلك يشعرها بالأمان والرعاية لها طول العمر . . ويشعرها أيضاً بالحب والرعاية لأطفالها إذا جاءوا . .

وبهذه التركيبة الغريزية البسيطة التى أودعت فى أعماق النفوس البشرية لكلٍّ من الذكور والإناث . . ضَمِنَ خالق البشر للمرأة وللأسرة كل الحقوق . . وكل الرعاية والأمان . . دون أدنى شك . . ! !

ولعلى لا أبالغ إذ أقول إن هذه التركيبة الفطرية لم تضمن فقط حقوق المرأة والأسرة بمعناها الواسع . . بل ضمنت للمرأة أيضاً جميع حقوق المساواة والنديّة التى تحاول الحصول عليها من مداخل خاطئة تماماً . .

وكلمة الاحترام هى المدخل الحقيقى لكل ذلك . . إن الرجل الذى يسعى إليها لأنها ملك يمينه . . أو إحدى عبيده . . أو لأنه سوف ينقدها مالاً . . لن يُكنّ لها أىَ ذرّة احترام . . ومثله فى ذلك أيضاً رجال المجتمعات المتخلفة حيث المرأة محرومة من حق التعليم . . أمية . . جاهلة . . تمشى فى خيمة من الملابس . . ولا تخرج من بيتها إلا لتُوارَى التراب . . إن لقاء هذا الرجل مع مثل هذه المرأة لن يختلف كثيراً عن لقائه مع غانية تبيع الهوى . . فالمعنى واحد . . والمردود واحد . . فى غيبة التقدير والاحترام . .

وبالتالى فإن الطبيعة الفطرية للرجل تعمل أولاً على أن تُظهر للمرأة جميع براهين القدرة على الأمان والرعاية . . وهو ما اصطلح علَى تسميته الحب (. . ! !) قبل أن يمكن بعد ذلك لعجلة الجانب الجسمانى من الجنس أن تدور . . وعندما تدور هذه العجلة فإنها تعطى كلا من الرجل والمرأة شعوراً بأن كل ما فى هذا الكون كاملٌ لا ينقصه شىء مهما كان فيه من نقص . . وأن كل ما فى هذه الدنيا جميلٌ لا يعيبُه شىء مهما كان فيه من قُبحٍ

وعيوب . . شعور نفسى أكبر بكثير من إحساسات الجنس نفسها . . !! وهو يعطى إحساساً بالسعادة دون أى تفسير . . حتى إن كانت ظروف الحياة نفسها لا تبرِّرُ أىَّ سعادة أو أىَّ سرور . . !! ولست أبالغ إذا قلت إن هذا الإحساس بالرضاء النفسى . . فى هذا الإطار من الحب والاحترام . . لكأنه اقتباس من إحساسات جنة الخلد دون أدنى شك . . !!

وكل الممارسات الجنسية التى تدور بين البشر فى غير هذا الإطار هى اصطناعٌ ضد الفطرة البشرية الحقيقية . . ولا تعطى أبداً إلا شعوراً كئيباً بلذة وقتيّة عابرة . . وغالباً ما يستتبعها عند كلٍّ منهما لحظات من إحساس مؤلم بالتفاهة والحقارة . . وبالتعاسة . . وكراهيةٍ للنفس . . وكراهيةٍ للطرف الآخر . . بلا حدود . . !!

الفصل الخامس

منابـع الخــير..

تبدأ العلاقة العاطفية بين الطفل وأمه قبل الولادة بزمن طويل . .
جهازه العصبى يحتوى على ملايين الخلايا والتى ترث الكثير من الصفات
heredi من الأجيال السابقة . . ولكن مازال ينقصها الكثير من الصفات
كتسبة nurture لكى تكتمل عنده صورة العقل البشرى كما نعرفه . .

وتكتمل حواس الجنين فى الشهور الأخيرة من الحمل . . بحيث يمكنه أن
ـمع ضربات قلب أمه وصوت أحشائها . . وصوت غنائها لنفسها إذا
دنت . . أما عن الكلام فحدث ولا حرج . . فهو طرف ثالث فى كل ما
ول . . ويمكنه أن يشعر بحركاتها ومشيتها ونومها فى الليل أو بالنهار . .
شترك الطفل مع أمه فى جميع تقلباتها العاطفية . . من عصبية وعنف أو
اهية . . إلى هدوء وسكينة أو حب وغرام . . وبعد الولادة يكتسب الطفل
استين جديدتين هما اللمس والبصر . . تزيدان من ارتباطه الجسمانى
عاطفى بأمه . . وتزيدان من درجات تسجيل كل هذه العواطف على
ـفحات الخالية فى تلافيف عقله البشرى . . والذى يتكوّن ساعة بعد ساعة
رما بعد يوم . .

ولا يختلف اثنان فى تقدير حجم العمل المطلوب لرعاية طفل فى شهوره الأولى . . فهو عمل مستمر full - time job على مدار ٢٤ ساعة . . ويمتد أحياناً إلى أكثر من ذلك بحيث لا تستغنى الأم عن مساعدة من الزوج أو الجدة أو الخالة لكى يمكنها أن تنال قسطاً من الراحة من وقت لآخر . .

واحتياجات الطفل متنوعة . . وأهمها إحساس الجوع . . وإحساس البلل . . وآلام الأمعاء . . وبرودة الجو أو حرارته . . ولدغ الحشرات كالبعوض مثلاً . . وأحيانا مجرد الرغبة فى أن تهدهده أمه بالذات . . وأن تبين له مقدار حبها بالحديث أو الغناء . . ويعلن الطفل عن هذه الاحتياجات عادةً بالبكاء الذليل الذى يستعطف الحجر . . ثم يعلن عن رضائه بعد ذلك بالابتسامة الواسعة . . وبهذين السلاحين يمتلك الطفل أباه وأمه (وبالذات أمه) امتلاكَ السلطان للعبيد . .

وعندما يتمكن الطفل من الحركة بالحبو أو المشى فإن رعايته تتضاعف أكثر وأكثر . . فلا بد من تواجد الكبار حوله ٢٤ ساعة من ٢٤ ساعة لكيلا يؤذى نفسه . .

فإذا بدأ الطفل فى الاختلاط بأقرانه خارج البيت فإن مسئولية رعايته تتضاعف أكثر وأكثر وأكثر من ٢٤ ساعة فى اليوم . . فمن الضرورى أن تكون أمه باستمرار أقرب إلى عقله وقلبه من ضغوط أقرانه ورفاقه peer pressure خارج باب البيت . . حتى لا يُزرَع فى تلافيف عقله ووجدانه ما يمكن أن يؤذيه فى قادم الأيام والسنين . . ولا يخف ضغط الأقران إلا بعد أن يتجاوز الجميع سن المراهقة . . أى عندما تصل البنت سن ١٨ . . ويصل الولد سن العشرين . . وهنا فقط يمكن للأم أن تتسلم وسام الأمومة عن جدارة واستحقاق . . وأن تمارس بعد ذلك أى نوع من العمل تريده خارج البيت . .

والإنسان الوحيد فى الكون كله الذى يمكنه تقديم كل هذه الخدمات لهذا الدكتاتور الصغير عن طيب خاطر ودون أية شكوى أو تذمر هى أمه . . وأمه فقط . . أما أبوه ففى إمكانه القيام ببعض هذه الأعمال بعضَ الوقت فقط . . ويصدق هذا القول أيضاً بالنسبة لباقى الكبار فى الأسرة كالأخ والأخت والجدة والخالة . . وكذلك لا يمكن للأب أو لأحد هؤلاء الكبار أن يقدم للسلطان الصغير النوعية نفسها من الخدمات التى تقدمها له أمه . . ولا الدرجة نفسها من الحب والتفانى والعواطف والحنان . . وكلها ضرورات لا غنى عنها من أجل التكوين السليم لنفسية الطفل وجسمه وعقله . .

من الواضح إذن أننا إذا أردنا إعطاء مهمة الأمومة حقها كاملاً غير منقوص فسوف نكتشف أنه لا يوجد أى مجال نهائيا لأن تمارس الأم أى عمل آخر . . إلا إذا كان يسمح لها بالتواجد الدائم بجوار طفلها ليل نهار . . وقد أدركت الأمهات فى البلاد الفقيرة هذه البديهية الفطرية منذ قديم الأزل . . فنراها وهى تحمل طفلها فى كيس معلق بكتفيها طول الوقت فى مزارع الأرز فى الصين . . وفى مزارع الشاى فى سيلان . . ونراها وقد أجلسته بجوارها وهى تصنع الخبز فى ريف مصر . . وإذا ذهبت إلى السوق فإنها تُجلسه على أحد كتفيها بطريقة أتقنتها فلاحات مصر بالذات ولا نجدها فى أى بلَد آخر . . وتحفظ المصرية توازن الطفل وتوازنها بطريقة مثيرة للدهشة مهما كانت تمارس من عمل أو تنتقل من مكان إلى مكان . . وغالباً ما نرى الطفل غايةً فى شعور الرضا والأمان . . وقد أحنى رأسه فوق رأس أمه وغطّ فى نومٍ عميق . .

وتصل كل نوازع الخير إلى وجدان الإنسان من خلال علاقته بأمه وهو جنين . . ثم وهو طفل صغير . . فهى العلاقة الإنسانية الوحيدة المجردة من

أى هدف آخر . . ولا يمكن أن تقارَن بعلاقة الطفل بأبيه أو إخوته أو أم أخرى ترضعه أو تتبناه . . أو تتزوج أباه . . علاقة هى أعلى درجات التفانى والسمو . . تعطى للطفل قدوةً لا مثيل لها لكل ما يمكن أن يكون خيراً . . أو فضيلةً . . أو عطاء . .

والشر الوحيد الذى يمكن أن يمارسه الطفل فى السنة الأولى من عمره هو استعباده لأمه وأبيه بواسطه سلاحيه الماضيين . . البكاء الذليل الذى يستعطف الحجر . . والابتسامة الواسعة . . ولكن هذه غرائز لا تهدف لشىء إلا لحب البقاء . . survival . . فلا يوجد سبيل آخر لمواصلة الحياة . . وقد نتجاوز فلا نعتبرها شرا . . لأن الغريزة المقابلة لها هى غريزة الأمومة . . التى تعطى وتعطى وتعطى دون إنتظارٍ لأى جزاء . .

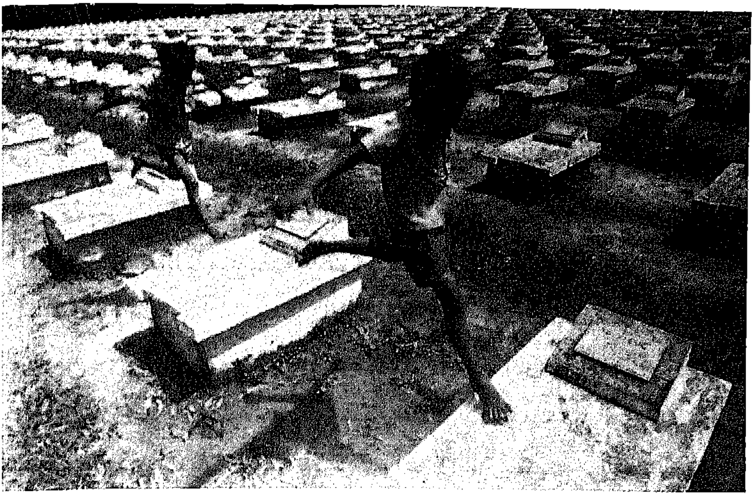
فإذا فُصل الطفل عن أمه لأى سبب كان قبل أن يبلغ السابعة من عمره فإنه سوف يُحرَم دون أدنى شك من أهم المصادر الغريزية العميقة الجذور للخير والفضيلة والعطاء . .

ويوجد فرق كبير جدا بين هذا المصدر الغريزى الأساسى . . وبين كل ما يتعلمه الطفل بعد ذلك من أى مصدر آخر من مصادر التربية والتعليم . . فالأول عميق الجذور فى النفس . . ولا يمكن أن يتغير أو ينقص مهما صادف فى الحياة من متغيرات . . ولا يمكنٍ أن يصيبه النسيان . . أما كل الفضائل التى تأتى بعد ذلك عن تعلُّم أو تديُّن أو تدريب أو اكتساب فهى دائما قابلةٌ لأن تزيد أو تنقص حسب الظروف والأحوال . .

حتى إذا كانت الأم شريرة قاسية . . أو كانت تمتهن مهنة ذليلة أو حقيرة . . فإننا نجدها تبعد طفلها عن أجواء الشر . . وعن مجالات الذلّ والحقارة . . بل قد تحاول أن تظهر أمامه على غير حقيقتها . . وكأنها تريد أن تكتسب منه الاحترام والتقدير . .

إذن فمن المؤكد إن العلاقة الغريزية المتبادلة بين الأم وطفلها لهى المنبع الأساسى للخير فى هذا الكون . . ومن المؤكد أيضاً إن رعاية هذا المنبع الفياض لهى المهمة الأساسية لأىٍّ من مجتمعات البشر . . ليس حرصاً فقط على صالح الأم وطفلها . . بل حرصاً أيضاً على صالح المجتمع نفسه على المدى الطويل . .

لقد تعودت عيوننا منذ بضعة سنوات على صور أطفال الحروب فى قارات آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية . . أطفال يتامى فى السن الغضة ما بين العاشرة والعشرين . . وقد وُضعت فى أيديهم الخناجر والبنادق والألغام . . تنظر فى عيونهم فلا تجد إلا نَظرة باردة قاسية تحجّرت فيها كل أنواع العواطف البشرية . . وذهبت بلا رجعة . . لأنهم أصلاً لم يصلهم من هذه العواطف أى شىء . . وقد وقفت كثيراً عند هذه الصورة فى مجلة نيوزويك لطفلين يلهوان بالجرى فوق قبور الإخوة والآباء والأمهات . . تصوروا هذين الطفلين بعد بضع سنوات وقد أصبح أحدهما سياسيا أو زعيماً . . والآخر وقد أصبح معلماً ينقل إلى جيل تال خلاصة خبرته فى الحياة . . ولنتصور معاً شكل هذا المجتمع فى خلال جيل واحد أو جيلين . . !!



من نوادر التاريخ أن والد هتلر كان أصلاً ابناً غير شرعي وكان مبتعداً عن البيت . . وكان أدولف فى طفولته يخاف الوحدة ويمسك بثوب أمه لتبقى معه . . ولكنها كانت تضربه وتحبسه فى المنزل لتخرج إلى عملها البسيط فى شركة يملكها أحد اليهود . . ولم يفلح أدولف فى أية دراسة أو عمل . . ولكن عواطفه المكبوتة تفجرت فى سن العشرين عندما اكتشف فى نفسه قدرةً خارقة على الخطابة وإلهاب مشاعر الآخرين . . وهى لمحة بسيطة من طفولة واحد من قادة الشعوب . . ولعلها تُغنى عن بعض الكلام . .

فزعت بلادنا منذ بضعة سنوات من موجات تلو موجات من الكوارث تصيب أولادنا . . تبدو كلها وكأنها بفعل فاعل . . masterminded . . فاعل يريد شرا لهذا البلد . . عمداً مع سبق الإصرار . . وقد بدأت بموجة من عقاقير الهلوسة والإدمان . . ثم تلتها موجات التطرف والإرهاب . . ثم موجة ثالثة

من أدوية خبيثة تُدَسّ فى الحلوى والشيكولاتة حول المدارس والنوادى لتصيد أطفالاً فى عمر الزهور إلى بالوعة الإدمان . . ثم موجة رابعة من الانحلال والأغانى المنحلة دون أى حدود . .

وفى كل واحدة من هذه الموجات كنا نكتشف عشرات ومئات من الآباء والأمهات يلطمون الخدود ويذرفون الدموع ويندمون بعد فوات الأوان . . كان معظم الآباء بعيدين عن البيت بحثاً عن المال . . وكان معظم الأمهات فى دواليب العمل ووسائل المواصلات من السابعة صباحاً إلى حلول المساء . . وكان معظم الأطفال يرضعون ثقافتهم على أيدى الخدم والبوابين . . والشلة التى تلعب فى الطريق . . ولكم سألت بعض هؤلاء الأمهات وكانت الإجابة واحدة : إنها مستعدة لقطع إحدى يديها مقابل عودة عقارب الساعة مرة أخرى إلى الوراء . . لكى تتفرغ لهؤلاء الأبناء والبنات ليل نهار . . تسعد برفقتهم وتأنس بحديثهم . . ولم لا . . !! فقد خرجوا من بطنها . . هم جزءٌ منها وهى جزءٌ منهم . . وأى متعة أكبر من مثل هذه الرفقة الحميمة مع أناس هم بعض لحمك ودمك . . وهم الخيط المستمر الباقى لخلاياك بعد أن تبلى . . وأفكارك بعد أن يتوقف لسانك عن الكلام . . !!

إن عملى فى تخصص الجراحة يعطينى الفرصة لأن أتفهّم أعماق النفس البشرية لآلاف الرجال وآلاف النساء . . ولكم رأيت من عواصف تكاد تطيح بزواجٍ فى عمر الزهور بعد ولادة الطفل الأول . . إن هذا الطفل يحتل فوراً مكانَ الصدارة فى وجدان الأم لدرجة أنه قد يثير غيرة أبيه . . وتصف بعض النساء مشاعر المتعة والنشوة وهى تحتوى طفلها بين ذراعيها وثديها فى فمه الصغير بما يكاد يطغى على كل ما كُتب فى أشعار العشق والغرام منذ خلق آدم وحواء . . ولا تنتهى هذه المتعة والنشوة بانتهاء سنوات الرضاع . . بل تمتد إلى

كل كلمة ينطقها الطفل وكل خطوة يخطوها وكل ملبس يلبسه . . وكل إنجاز يصل إليه . .

ويتبادل الطفل مع أمه هذه المشاعر تماماً بالقدر نفسه الذى يتلقاها منها . . فإذا كانت كما يجب أن تكون . . فيضاً غامراً لا ينتهى . . فإن علاقته بأمه تصبح هى نقطة الارتكاز الثابتة فى مواجهته لكل صعاب الحياة فيما بعد . . بل تصبح هذه العلاقة هى المصدر الرئيسى لكل الفضائل والأخلاقيات فى حياته . . ويصبح تأثيرها على وجدانه أكثر بكثير من كل ما يقوله رجال الدين أو رجال الشرطة أو رجال القضاء . .

وأذكر فى هذا السياق فيلماً سينمائيا من نوع أفلام الغرب western . . وقد انساق شاب مع بعض الرفاق كونوا عصابةً تقطع الطريق . . وقد حاصرهم رجال الشرطة وأصبح لا مناص من تبادل إطلاق النار . . وطلبت الأم من قائد كتيبة الشرطة أن يعطيها فرصة أخيرة . . فهى أدرى بولدها . . وخرجت الأم وحدها إلى مكان العصابة . . ونادت بصوتها الواهن على ابنها . . وكررت النداء . . وساد صمت رهيب . . وكل البنادق تتحفز للانطلاق . . ولكن الشاب المغامر خرج من حصنه دون سلاح فى خطوات متعثرة . . وكأنه طفل يتعلم المشى من جديد . . ودنا ببطء إلى أن ركع على ركبتيه أمامها . . ومن العجيب أن شهقات التأثر يومها لم تكن صادرة من شاشة العرض على الإطلاق . . بل من مئات النساء من المتفرجين . . !!

الفصل السادس

أمومة الدولة ..!!

فى قرون كثيرة ماضية كان معظم البشر ينقسمون إلى قبائل يرتبط أفراد كلّ منها عادة بوشائج القرابة والنسب. . وتدين كل قبيلة بالولاء لزعيم له صفات مشتركة فى جميع الحالات. . أولها القدرة على إقناع الآخرين بما يراه سواء بحلو الكلام أو بالقسوة وحب السيطرة. . وثانيها أن يكون له حريمٌ لانهائى من النساء. . وعدد لانهائى من من الأطفال. .

وكان المصدر الرئيسى لنساء الحريم هو الحروب بين القبائل. . لأن سبى النساء كان واحداً من غنائم المنتصرين. . (ومازال الاغتصاب الجماعى هو سمة كل الحروب. . وليس سمة حروب البوسنة والهرسك فقط. . !!) وكانت هذه الحروب أيضاً مصدراً لا ينضب لمئات وآلاف من أطفال يتامى فقدوا آباءهم بالقتل. . وفقدوا أمهاتهم بالسبى. . وأطلق عليهم فى بادئ الأمر اسم العبيد. . فقد كان الواحد منهم عبداً فعليا للمقاتل الذى أسره. . ملكاً له وكأنه بعض الغنم. . ويمكنه أن يبيعه وأن يشتريه إذا عزّ الحصول عليه أثناء قتال. . وأصبحت مكانة كل فرد فى القبيلة تقاس ليس فقط بعدد أكياس الذهب والفضة. . بل أيضاً بعدد العبيد وعدد الأغنام والأبقار. .

وهنا نشأت مشكلة مهمة . . وهى كيفية تنشئة هؤلاء الأطفال اليتامى العبيد . . وكانت الإجابة هى فى معسكرات التدريب على القسوة والقتل والسلاح . . وكان أمراء القبائل ينفقون على هذه المعسكرات وعلى المعلمين والمدربين فيها من أموالهم الخاصة . . ليصبح لكل منهم جيش من الحرس الخاص يخلصون له إخلاصاً أعمى ويفتدونه بأرواحهم . .

وكان يحدث فى بعض الأحيان أن يكون من بين هؤلاء الحرس من له عزمٌ أو شكيمة أكثر من باقى الرفاق . . وسرعان ما كان يتحول الحرس الخاص إلى عدوّ خاص (. . !!) يغتال الأمير ويستولى على مكانه . . إلى حين . . ! وفى تاريخنا فى مصر عندنا المثل القريب الذى نعرفه جميعاً وهم دولة المماليك . .

وقد لجأ أدولف هتلر إلى الفكرة نفسها مع بعض الاختلاف . . وكان إيمانه عميقاً بالتفوق العنصرى للجنس الألمانى وتميزه عن باقى شعوب الأرض . . فلم يفكر أبداً فى تدنيس هذا الشعب باجتلاب العبيد من الخارج . . بل كان حلمه الكبير هو أن يحول الجنس الألمانى كله إلى خلية من النحل النازى تدين له بالولاء الأعمى . . ويسيطر بها على مقدرات الكون كله . . وبدأ أول ما بدأ بإنشاء مراكز تفريخ للأطفال . . تُجلَب لها أجمل وأكمل النساء وأقوى وأفضل الرجال . . وكان جواز المرور لكل منهم أو منهن هو النسب الألمانى الصافى إلى سابع جد . . واجتياز التحاليل الطبية التى تثبت الخلو من جميع العيوب . .

وعندما اكتشف البطء الشديد فى هذه الطريقة للحصول على العدد الكافى من الأطفال أصدر الأوامر بتأميم (!!) الأطفال فى الدولة الألمانية . . أى أخذ الأطفال من أسرهم وتربيتهم بمعرفة الدولة . . وكانت

الحجة التى تقال هى أن الدولة أقدر على رعايتهم صحيا ونفسيا وتربيةً وتعليماً من آباء وأمهات قد يكونون هم أنفسهم على قدر غير كاف من الوعى والتعليم . .

وكلنا نعلم الان كيف كانت النتيجة . . لقد حصل الحزب النازى على الاف من الشباب نُزعت منهم صفة الآدمية . . أصبحوا كالإنسان الآلى بلا أى مشاعر أو عواطف . . ونُزعت من قلوبهم كل صفات الرحمة والخير . . ولم يبق فى نفوسهم إلا كل الشرور الموروثة فى طبيعة البشر . .

وفى القرن العشرين لم يكن أدولف هتلر هو الرائد فى هذا المجال . . بل سبقه إلى ذلك شياطين الشيوعية عندما سيطروا على مقدرات الشعب الروسى (وقد كان قبل ذلك واحداً من أعرق شعوب الأرض) ولم تكن الشيوعية قدراً محتوماً على هذا الشعب بعد ثورته وإطاحته بحاكمٍ ظالم فى عام ١٩١٧ . . فقد سبقته ثورات كثيرة عمت فيها الفوضى والعنف والتخريب ولكنها لم تنقلب إلى شيوعية . . كمثل الثورة الفرنسية وغيرها العشرات . .

وقد غاب السبب الحقيقى فى نجاح البلاشفة داخل خزائن وأسرار الإمبراطوريات السابقة . . ولم يُكشف إلا بعد الإفراج عن مستندات كثيرة بعد نصف قرن من الزمان . . فقد كان ولهلم الثانى إمبراطوراً لألمانيا فى الحرب العالمية الأولى . . ووجد نفسه بين شقى الرحى على الجبهتين الشرقية والغربية . . فقام بإخراج الفوضوى فلاديمير أوليانوف من سجون ألمانيا . . وأرسله فى قطار مسلح خاص مع حراسة مشددة من فرقة كاملة من الجيش الألمانى . . عمداً مع سبق الإصرار والترصد . . وعبر كل خطوط القتال فى أوربا ليصل إلى العاصمة الروسية سان بيترسبورج . . وسبقته دعاية غوغائية

مكثفة بين الجماهير والعمال الذين شردتهم المعارك فى كل مكان. . وأمده بكل ما يلزمه من مال وعتاد. . وأصدر أوامر مشددة لقائد الجيش الألمانى فى الشرق بتنسيق تحركاته مع كل ما يفعله السيد فلاديمير وأتباعه من البلاشفة داخل الحدود الروسية. . وكان الشرط الوحيد للإمبراطور الألمانى هو أن يفرض فلاديمير وقف القتال على الجبهة الروسية فور اعتلائه مقاليد السلطة. . وهو ما تم فعلاً بعد بضعة أسابيع فقط فى اتفاقية برست ليتوفسك الشهيرة. . وبها تفرغ الإمبراطور لقتال الإنجليز والفرنسيين فى الجبهة الغربية. .

وقد تسمى فلاديمير أوليانوف بعد ذلك باسم لينين. . وأحاطه زبانية الشيوعية بهالة من القدسية ورفعوه إلى مصاف الآلهة. . حتى بعد أن اغتاله تلميذه النجيب جوزيف ستالين. .

ونعود إلى ما فعله زبانية الشيوعية فيما يخص الأسرة والأطفال. . فقد ألغوا جميع الأديان. . وأغلقوا جميع دور العبادة. . وألغوا الملكية الخاصة وأصبح كل شىء مملوكاً للدولة بما فى ذلك البشر أنفسهم. . يعمل رجالهم ونساؤهم فى المزارع والمصانع كما يعمل النمل والنحل. . ولا ينالون إلا الطعام والشراب والمأوى الهزيل. . ولم يعد للأطفال مكان فى البيت. . بل تولت أمرهم الدولة. . فألغيت مؤسسة الأسرة. . الفكرة نفسه التى اتبعها هتلر. . ولكن من مفهوم النمل والنحل بدلاً من مفهوم العنصرية. . وكانت النتيجة واحدة. . وهلك ملايين من الشعب الروسى فى سجون القهر والإذلال. . وأدمن الباقون الخمور ليل نهار لينسوا أو يتناسوا ما وصلوا إليه. . إلى أن انهار صنم الشيوعية الكئيب بعد سبعين عاماً. . وسوف يلزمهم جيلين على الأقل ليلحقوا بباقى البشر. .

لقد أجريَت آلاف الإحصائات والبحوث على أطفال البشر . . فى الريف والحضر . . فى الدول النامية وفى الدول الصناعية . . فى الدول الشيوعية وفى الدول العادية . . وذلك للمقارنة بين الأطفال الذين تربوا فى أحضان أمهاتهم . . والأطفال الذين تربوا فى الملاجئ . . وحضانة الدولة . . ومعامل التفريخ الشيوعى والنازى . . وفى الكيبوتزات الصهيونية فى الأربعينيات فى فلسطين . . إلخ إلخ ووصلت هذه البحوث إلى نتيجة مؤكدة وهى أن الأطفال الذين يربيهم المجتمع وليس أمهاتهم ينشئون نشأةً تعيسة كئيبة . . وتكثر فيهم جميع الأمراض العضوية والنفسية . . ويكونون أقل ذكاءً وأقل إيجابية فى مواجهة مصاعب الحياة . . وتغلب عليهم نزعة الشر . . وتقل فيهم كثيراً نسبة النابغين أو المتميزين فى أىٍّ من مجالات العمل أو الفن أو الإبداع . . ! !

لا يمكن للدولة . . أو لأى شكل من أشكال المجتمعات البشرية أن تعوّض الطفل عن الصلة الغريزية الطبيعية بينه وبين أمه . . ولم يعد هذا مجالاً للنقاش النظرى أو الفلسفى . . فقد أثبتته حقائق كثيرة فى تاريخ البشر . .

الفصل السابع

تحرير المرأة .. بين الحقيقة والخيال ..

عندما نستعرض موضوع حقوق المرأة فى الزمن المعاصر فإننا نفاجأ بأن دنيانا يوجد فيها كل درجات الطيف فى هذا المجال . . فإلى أقصى يمين الطيف النسائى نرى اللون الأحمر مُمَثّلاً فى حكومة الطالبان الجديدة فى أفغانستان . . وفى أقصى اليسار نرى اللون البنفسجى فى المدن الصناعية فى دول الغرب بالذات . .

وقد استولت جماعة الطالبان على أجزاء كبيرة من أفغانستان . . وكان أول فرمان تصدره هو نفى المرأة إلى داخل البيت وتحريم الشارع عليها . . ثم إصدار الأوامر المشددة بمنع النساء من مزاولة أى عمل أيا كان . . حتى لو كانت أرملةً تعول أطفالاً جياعا . . وكان الفرمان الثانى هو إيقاف الدراسة فى جميع المراحل بالنسبة للبنات والنساء . . وتوزيع حمَلَة العصىّ والسياط فى الشوارع يضربون بها أية امرأة تسير فى الطريق إذا ظهر منها كف يد أو طرف عين أو خصلة من شعر . . أو إذا أصابها الجنون وخرجت تقود سيارة . . !!

وفى المجتمعات المماثلة فإننا نعلم أيضاً أنه لن تظهر أية صورة لامرأة فى

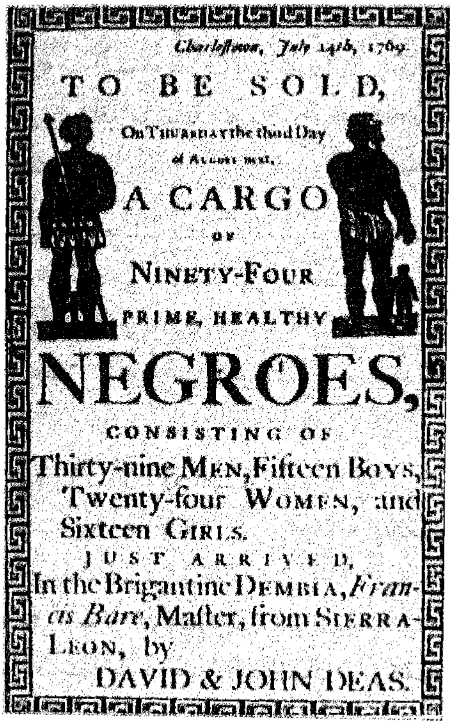
كتاب أو مجلة أو صحيفة أو تلفزيون . . ولن يُسمع صوت نسائى فى أى محطة للإذاعة . . ويمتنع الرجال عن الجلوس على أى مقعد كانت تجلس عليه امرأة لمدة لا تقل عن نصف ساعة ليزول كل أثر لأية حرارة من جسمها . . حتى لا يستثير ذلك فيهم أى خيال . .

ويمكننا تلخيص هذا الجزء الأحمر من الطيف فى جملة واحدة . . وهى اعتبار المرأة مجرد مصدر للإثارة الحيوانية لباقى المجتمع . . وعلى المجتمع أن يحاصر هذا المصدر بكل الوسائل والإمكانات . . ولا يوجد للمرأة فى ذلك المجتمع إلا ثلاثة حقوق : الحق الأول هو حقها فى الحياة . . بحيث لا يدفنها أبوها فى التراب عند ولادتها . . والحق الثانى هو حق الملكية الخاصة والوراثة حسب قواعد محددة . . وحيث إنها فى العادة تكون محرومةً من التعليم فإن إدارة مالها يكون عادةً مسئولية الرجال فى أسرتها . . والحق الثالث هو ضرورة أخذ موافقتها قبل عقد زواجها على رجلٍ معين يختاره أهلها . . وحقها أيضا فى طلب الطلاق أمام القاضى فيما بعدّ . . ولو أن حقى الموافقة وطلب الطلاق عادةً ما يصبحان شكلاً صوريا فى الجو العام الذى تعيش فيه هذه المجتمعات . .

ومن الطريف أنه مازال يوجد فى دنيانا اليوم جزءٌ من هذا الطيف النسائى يمكن تسميته بالأشعة دون الحمراء . . ! ! ففى بعض قبائل أفريقيا قد تُباع المرأة وتُشترى ضمن قطيع الأبقار رالأغنام . . وفى بعض قبائل الإسكيمو تُعتبر الزوجة من بين وسائل إكرام الضيف . . بعد أن يتناول طعام العشاء . .

وفى عصر الجاهلية فى جزيرة العرب كانت المولودة الأنثى تدفن فى الرمل فورا حتى لا تجلب العار والشنار على أبيها وعلى القبيلة كلها عندما يأسرها الفرسان الصناديد قطاع الطرق فى القبائل الأخرى فيما بعد . . ويبدو

أن المصـدر الرئيسـي للأمهـات فى ذلك العـصر كـان هو نســاء السـبى والإماء . .



(عندما يُباع الرجال والنساء والأطفال . . وكأنهم بعض البقر . . !!)

وفى عصر العبيد فى أمريكا . . والذى لم ينته رسميا إلا منذ مائة عام فقط . . كانت المرأة السوداء مُستباحةً ليس فقط لمالك المزرعة وإخوته وأولاده من الذكور . . بل أيضاً لأى واحد من ضيوفه ومعارفه . . وقد نصّ قانون ذلك المجتمع على أنه ليس من حق مالك المزرعة أن يمنع أحداً من أهل البلدة

البيض فى أى وقت ليلاً أو نهاراً من استباحة النسوة السود الذين يعملون فى أرضه . . أو حتى الذين يعملون خدماً فى منزله أو دادات لأولاده . .

وإذا تصادف أن وُلدَ لإحداهن طفلة بيضاء البشرة ذات حسن وجمال فإنها كانت تُعتبر هديةَ من السماء سوف يستبيحها كل رجال البلدة في خلال بضعة أعوام . . وكم رأينا أفلاماً سينمائية من نوع western تدور كلها حول هذه المآسى والمفارقات . .

ودعونا الآن نقفز درجات الطيف النسائى كلها لنصل إلى أقصى اليسار . . عند اللون البنفسجي . . وسوف نجد أقصى درجات هذا اللون فى بلاد الغرب بالذات وخاصة فى المدن الصناعية بالشمال الأمريكى وشمال القارة الأوربية ووسطها . . دوناً عن جنوبها . . ودوناً عن القرى والمناطق الريفية . .

ففى هذه المدن نرى الإنسان وقد أصبح مجرد ترس من ملايين التروس فى آلة الحضارة الصناعية الحديثة . . ونرى أساطين العلم الحديث وهم يستنكرون حتى مجرد التفكير فى وجود خالق مبدع لهذا الكون . . ونرى وسائل التعليم . . وحتى وسائل الترويح والترفيه والتسلية . . وهى تتحدث كلها عن الجينات التى يتكون منها جسم الحيوان والإنسان . . وكيف أن هذه الجينات نشأت من تلاحم ذرات البروتينات فى بحار الكرة الأرضية منذ آلاف الملايين من السنين . . وتطورت إلى أن أصبحت قادرةً على الذكاء والتفكير والابتكار . . وأنها فى طريقها الآن إلى تدمير نفسها بنفسها بعد أن تسببت فى تخريب بيئة الكرة الأرضية . . وتآكل طبقة الأوزون . . وحرق الغابات . . وانقراض سلالات الكائنات الأخرى . . إلى آخر ما نراه فى فى أفلام الخيال العلمى sci-ence fiction والتى تتسلل تدريجيا من حضارات الغرب إلى باقى أنحاء العالم . .

وعند هذا اللون البنفسجي نرى حضارة الغرب وهى تصف حياة الإنسان بأنه مجرد حامل vehicle للجينات الموجودة فى جسمه . . وأن الهدف الوحيد لحياته هو توصيل هذه الجينات إلى جيل آخر . . ثم تنتهى مهمته بالموت . . وعندما يموت فإنه يتساوى تماماً مع الحصان الذى نفق . . والطائر الذى هلك . . والحشرة التى داستها الأقدام . .

وتعالوا بنا نتأمل مشاعر الرجال والنساء فى مثل هذا الإطار العام . . فلسوف يستقر فى وجدان كلّ منهم احتقارٌ كامل وشامل لنفسه وللآخرين . . وأن رحلة الحياة ما هى إلا لحظاتٌ تنتهى إلى العدم . . وأن المتعة الوحيدة فى هذا السيناريو الكئيب هى المتعة الحسيّة . . وملذات الجسد . . وسوف تتبلور كل هذه المشاعر فى نهاية الأمر إلى فلسفات العيش من أجل اللذة . . life for pleasure . . وتشمل هذه الفلسفات أشكالاً كثيرة من الغرائز البشرية . . منها ما هو معنوى كحب السيطرة . . وعشق القوة والسلطان . . وأيضاً حب المال والتباهى بكل ما ينُمّ عن الثروة والغنى . . ومنها ما هو لذة جسدية مجردة . . تبدأ من الحلوى والشيكولاتة فى الطفولة . . وتتدرج إلى ملذات الجسد فى الشباب بكل الأشكال والأنواع . .

وسوف نكتشف أن العائق الوحيد لاستكمال كل صور ملذات الجسد هو مشاعر النساء . . وقد رأينا فى فصل سابق أن الجانب الجسمانى فى اللقاء لا يمكن أن يبدأ أصلاً إلا إذا أعطت الأنثى إشارات الاستجابة والقبول . . وأن الأنثى لا تعطى هذه الإشارات إلا إذا شعرت بالمشاعر السامية من حب وعطف واحترام . . وحماية للأطفال إذا جاءوا . . ولذلك كان من أهم الأسس للفلسفات الجديدة هو تحطيم الجانب المعنوى للجنس عند النساء . .

ومحاولة تمجيد الجانب الحسى عندهن إلى أقصى درجات التمجيد بكل الوسائل . . من إعلام إلى إعلان إلى سينما إلى عروض أزياء ومسابقات جمال . .

وليس من قبيل الصدف أن حركات تحرير المرأة فى المدن الصناعية الأوربية والأمريكية قد اختلطت منذ البداية . . عمداً أو عن حسن نية . . بالمطالبة بحرية جسد المرأة . . حريتها فى مبادأة اللقاء بدلاً من الاستجابة . . وحريتها فى الاستمتاع الحسى حتى فى غيبة العواطف . . وحريتها فى استعمال وسائل منع الحمل وممارسة الإجهاض . . لكيلا يفسد الأطفال هذا الاستمتاع . .

والمرأة المتحررة تحت هذا المفهوم ترفض أن تُلقّب Mrs أو حرم فلان . . وترفض ملابس النساء الداخلية الناعمة lingerie . . وترفض التزين من أجل رجلها . . أو أى رجل . . وقد كانت سيمون دى بوفوار (١٩٠٨ - ١٩٨٦) هى المتحدث الأكبر لحركات تحرير المرأة فى هذا الإطار . . وخاصة بكتابها الشهير («الجنس الثانى ») والذى صدر عام ١٩٤٩ وأعيد طبعه مائة مرة . . ويكفينى هنا أن أشير إلى نقطة مهمة فى تاريخ حياتها . . فقد ارتبطت الآنسة بوفوار طويلاً فى علاقتين غراميتين متزامنتين مع اثنين من مشاهير الكتاب . . وكان مبدؤها هو تجنب الإنجاب . . وحيث إن عشق الأسرة والأمومة هى الصفة الطبيعية الأولى لكل إناث البشر . . فإننى أرى أن هذه الحقيقة تغنى عن أى تعليق . . !!

وليس من قبيل الصدف أن نرى الأفلام السينمائية فى الثمانينيات والتسعينيات تُمجّد لحظات اللذة التى حصل عليها «س» من الشبان مع «ج» من الفتيات . . وتعتبر ذكرى هذه اللحظات وكأنها المبرر الوحيد لارتباطهما

معـاً سواء فى عـلاقـة مؤقـتـة أو فى زواج مـؤقـت . . وتنتـهى هذه العـلاقة أو الزواج عندما يكتشف الشاب أو الفتاة رفيقاً آخر يعطيه أو يعطيها لذةً أكبر عند اللقاء . .

وإننى أذكر فى هذا المجال لقطة فى أحد الأفلام الأمريكية وقفت عندها كثيراً كثيرا لأنها حقا عجبٌ عجاب . . زوج ناجح وزوجة فاتنة وبيت جميل وأربعة من الأطفال . . ويخرج الزوجان يمارسان رياضة الجرى قبل أن تجتمع الأسرة على مـائدة العشـاء . . وفـجأة يتوقف الرجل . . ويبكى بحرقة على كتف امرأته . . ويشكو لها ويستشيرها فى أمر مهـم . . وهو أنه وقع فى غرام زميلته فى العمل . . وأن هذا الغرام قد بدأ عندما شعر سيادته بأقصى درجات اللذة فى لقاء عابر مع الزميلة منذ أسبوع . . لقد اكتسبت هذه اللذة العابرة قُدسيةً واحتراما فى مثل هذه المجتمعات وأصبحت مبررا ممكنا لهدم المنزل على من فيه . . ! !

وليس من قبيل الصدف أن مظاهر الجمال الأنثوى قد أصبحت هى القاسم المشـترك الأعظم بين كـل وسـائل الدعـاية والإعـلان . . سـواء كـان الإعـلان يتحـدث عن نوع من السجاير أو نوع من الصـابون أو آخر مـوديل من مـصانع السيـارات . . حتى أن داعيات التحرير النسائى أنفسهن قد بدأن فى التململ والقلق من الدرجة التى وصلت إليـها صناعة الإعـلانات فى امتهـان الجنس اللطيف . .

وليس من قبيل الصدف أن تعبير « العيش معاً cohabitation » قد أصبح البديل المفضل عن الزواج بين فتيان وفتيات الجامعات فى القارة الأمريكية بالذات . . بحيث يمكن لأى منهـما أن يتحلل من هذه الرفقـة فى أى وقت دون أى التزام . . ومن الطبيعى أن الخاسر الأكبر فى هذه الصفقة هى الفتاة

دون أدنى شك . . فمنذ خمسين سنة كان الشاب يرقص فرحاً إذا تفضلت عليه فتاته بنظرة عابرة أو ألقت إليه زهرةً من الشباك . . أما اليوم فهو لا يكتفى منها إلا بالتسليم التام دون أية شروط . .

لقد رأينا فى فصل سابق كيف أن الطبيعة البشرية للمرأة تجعل قمة استمتاعها بالدنيا كلها عندما تشعر بإحساس دافئ بمزيج من الرعاية والحماية والقوة والحنان من جانب رجلها . . وعندماً يتسلل إلى أنفاسها شعور النشوة المستترة بسبب غيرة رجلها عليها (فى حدود !) من نظرات الرجال الآخرين . . إن مثل هذه المشاعر لهى إحساسات أصيلة مغروسة غرساً فى نفس كل أنثى طبيعية . . وهى التى تدفعها دفعاً إلى التفانى فى إسعاد هذا الرجل بكل ما تملك من مفاتن جسدية وملابس ناعمة هفهافة . . وطعام شهى . . وعواطف حب وحنان . . ودعنى أتحدى بعض داعيات تحرير المرأة أن تنظر لنفسها عيناً لعين فى المرآة . . وأن تسأل نفسها دون أى رقيب عن صحة كل كلمة قيلت فى سياق هذا الحديث . . ! !

ولا يمكننى أن أختم هذا الفصل دون الإشارة إلى ما نسمع به اليوم عن بحوث تقوم بها شركات أدوية تنتج حبة تتعاطاها المرأة لتعطيها إحساس النشوة orgasm دون حاجة إلى رفقة . . ! وقد كان آخر ما نشر عن هذه الفكرة فى مقال لمجلة نيوزويك فى ٢٨ أبريل ١٩٩٧ كجزء من حديث عما وصلت إليه حياة الأسرة فى أمريكا . .

ويقول الحديث أيضاً إن شركات الأدوية تدرس أيضاً أنواعاً جديدة من أدوية الاكتئاب والقلق . . وقد وصل ما يستهلكه الأمريكيون منها إلى أكثر من أربعين مليار دولار سنويا . . ويخصص جزء من هذه البحوث لإنتاج أدوية لعلاج الاكتئاب عند الأطفال فى أغنى دولة فى العالم . . ! وختمت

المجلة حديثها بإحصائية تقول إن فكرة الأسرة كمؤسسة اجتماعية قد بدأت في الانهيار في المجتمع الأمريكي وإن نسبة أكثر من ٥٢ ٪ من الأزواج يرفضون الإنجاب أصلاً . . ونسبة ٢ ٪ من الأطفال يربيهم الأب وحده . . ونسبة ٩ ٪ من الأطفال تربيهم الأم وحدها . . ويعني هذا أن أكثر من ثلثي الأسر في أمريكا قد تم انهيارها . . وبشرت المجلة قراءها أن هذه النسبة سوف ترتفع إلى ٧٠ ٪ خلال بضع سنوات . .

ويمكنني أن أزيد أنا شخصيا إلى هذه البشرى إضافةً من نوع المضحكات المبكيات . . إن إنهيار الأمم الكبيرة كان يبدأ دائماً بانهيار الأسرة وتفسخ القيم . . هكذا انهارت دولة الفرس ودولة الروم . . وهكذا انهارت دولة العباسيين ودولة الأندلس . . وإنني لأكاد أرى سحابة سوداء فوق هذا المجتمع الأمريكي . . وصدق من تنبأ بأن مركز القوة في القرن القادم سوف يكون في مكان آخر . . وقد يكون في الشرق الأقصى كما يقولون . .

الفصل الثامن

رحلة العواطف ..من القلب إلى الرأس ..!!

لو كان هذا الكتاب قد كُتب منذ بضعة سنوات لكان من الضرورى أن يكون عنوان هذا الفصل (قلب المرأة . . وقلب الرجل . .) فقد ظن الإنسان طويلاً أن القلب هو مركز الكون . . ومركز الروح . . ومركز العواطف والأفكار . . واستمر هذا الاعتقاد لمئات وآلاف من السنين . . وأيدته آلاف من أبيات الشعر والأوصاف اللفظية والكنايات النثرية . . حتى أصبح الرمز المبسّط للقلب . . والذى يشبه نصفى التفاحة الحمراء . . هو الرمز العالمى لكل العواطف الإنسانية . . وما تعنيها لكل البشر . .

إلى أن جاء العلم الحديث . . وتنازل القلب عن عرشه العظيم . . وأدرك الإنسان أن السر الكبير يكمن داخل الصندوق السحرى العجيب والذى نسميه بالرأس . .

يبدأ الإنسان حياته خليةً واحدة . . تحتوى على إنسيكلوبيديا طويلة عريضة من المعلومات والتعليمات والأوامر والنواهى . . موضوعة كلها فى شكل شفرة سرية عجيبة من كلمات نسميها الجينات . . مكتوبة على ألوف من صفحات نسميها كروموسومات . . وعندما تنقسم كل خلية إلى اثنتين فإنهما يصنعان صورة طبق الأصل (فوتوكوبيا !!) من كل صفحات الإنسيكلوبيديا البشرية كلها . . وتتسلم كل خلية نسخة كاملة منها غير منقوصة . . ويصدق هذا على كل خلية من خلايا جسم الإنسان . . بدءاً من بويضته الأولى إلى خلايا جلده وأظافره التى يقصها كل بضعة أيام . .

وتنقسم الخلية الأولى إلى اثنتين ثم أربعة . . وقد اكتشف العلماء أن كل واحدة من هذه الخلايا الأربعة بالذات يمكنها أن تصنع جنيناً كاملا ينمو إلى إنسان كامل الأوصاف . . وهو ما نراه عندما تحمل المرأة فى توأمين متشابهين uniovular على سبيل المثال . . وهو ما نراه أيضا فى البحوث الاستنساخ cloning عندما نأخذ واحدة من هذه الخلايا الأربعة ونعالجها بطرق حديثة اكتشفها العلماء تدفع الخلية إلى الانقسام إلى أربعة أخرى قادرات على تكوين أربعة أجنة كاملة الأوصاف . .

ويفسر العلماء ظاهرة التوائم هذه بأن خلايا الانقسام الأول ثم الثانى هى خلايا totipotent أى تظل قادرة على قراءة كل صفحات شفرة الجينات العجيبة وتنفيذ كل تعليماتها دون نقصان . . أما عند الانقسام الثالث والذى يصبح فيه عدد الخلايا ثمانية فإن هذه المقدرة تتوقف . . وتبدأ ظاهرة جديدة

وهى أن كل واحدة من الخلايا الجديدة تتخصص فى قراءة بعض الصفحات فقط . . وليس الكل . .

وتزداد درجات التخصص كلما زاد عدد الخلايا إلى ١٦ إلى ٣٢ إلى ٦٤ إلى ١٢٨ إلى ما لا نهاية . . بحيث إنه خلال بضعة أيام نجد أن أنسجة الجنين قد تشكلت إلى ثلاثة أنواع من الأنسجة . . واحد داخلى سوف يُصنع منه جميع أجزاء الجهاز الهضمى بما في ذلك الغدد الكبيرة كالكبد والمرارة والبنكرياس . . وواحد أوسط سوف يُصنع منه جميع العظام والعضلات والقلب والأوعية الدموية . . وثالث خارجى سوف يغلف الجسم من الخارج بطبقة الجلد ومشتقاتها من غدد العرق والشعر والأظافر . . وقد وجد العلماء أن جزءاً من هذا الغلاف الخارجى ينبعج إلى الداخل ويتخصص فى صناعة الجهاز العصبى بدءا من النخاع الشوكى بطول الجسم كله . . وانتهاءً بالكرة ذات التلافيف والتى نسميها بالمخ والتى توجد فى مقدمة الجسم . . وسرعان ما تتكون طبقة من الأغشية والعظام حول هذا الجهاز العصبى المهم لكى تحميه . . وهو ما نراه فى عظام العمود الفقرى وعظام الرأس . .

وفى البداية نجد أن الجهاز العصبى يتكون من ألوف ثم ملايين من الخلايا . . تنقسم وتنقسم وتتكاثر وتتكاثر إلى أن يولد الطفل . . وعند هذه اللحظة يتوقف كل انقسام . . ويثبت عدد خلايا الجهاز العصبى عند العدد الذى يولد به الطفل . . وهو حوالى مائة مليار خلية عصبية (أى مائة ألف مليون . . وهو نفس عدد النجوم الموجودة فى مجرّتنا التى توجد فيها شمسنا وكرتنا الأرضية) . . ولا يزيد هذا العدد بعد ذلك مهما طال العمر . . وإذا هلكت إحداها أو بعضها فإنها لا تُستبدل مهما كان السبب . . بعكس معظم أنسجة الجسم كالجلد والعضلات والعظام . . إلخ والتى يمكنها أن تصنع

خـلايا جـديدة فى أى مـرحلة من مـراحل العـمـر . . والجلد بالذات تتسـاقط خلاياه السطحية وتستبدل بأخرى جديدة كل يوم . . بحيث يمكننا أن نجزم أن كل واحد منا قد غير جلده تماما عشرات ومئات المرات أثناء حياته (!!) وإن كان على النسق والشكل العام والبصمات نفسهم . . دون تغيير . .

وعندمـا يكبـر حـجم المخ عند الأطفـال فـإن عظام الجـمـجـمـة تتـآكل من الداخل ويمـتصـهـا الدم ويـوضع بدلها طبقـات عظام جديدة من الخارج . . بحيث إن الطفل يغير جميع عظام رأسه مرة كل سنتين إلى أن يكتمل نمو الرأس عند البلوغ . .

عندما يولد الطفل فإن خلايا جهازه العصبى يكون قد تم توصيلها ببعضها البعض بما يشبه أسلاك الشبكات الكهربائية . . حسب خريطة دقيقة تمليها عليها تعليـمات صارمـة موروثة داخل كل واحـدة من هذه الخلايا . . وليس فيـهـا أية درجة من العشوائية على الإطلاق . . وعندما يكبر الطفل ويكبر معه حجم رأسه وحجم مخه فإن هذه الزيادة لا تأتى من تكاثر عدد الخلايا . . بل يأتى بعضها من زيادة حجم كل خلية على حدة . . ويأتى معظمها من الزيادة اللانهائية فى عدد وحجم الأسلاك والتوصيلات التى تخرج من كل خلية . . ويمكننا تشبيهها وكأنها أسلاك تليفون تمتد وتمتد إلى أن يتوقف كل واحد منها عند خلية أخرى محددة . . ويتصل بها اتصالاً أبديا لا ينفصم بعد ذلك طول العمر . .

وقد أمكن للعلمـاء منذ عـشرات السنين تحديد خـريطة مبـدئيـة لوظائف الخلايا المختلفة فى الجهاز العصبى . . يمكننا إيجازها فى ثلاثة سطور كما يلى :

(أ) يتـحكـم الفص الأيمن من المخ فى إحـسـاسـات وعـضـلات النصف الأيسر من الجسم . . والعكس بالعكس . .

(ب) يتركز الإحساس البصرى من النصف الأيمن من كل عين فى مؤخرة الفص الأيسر من المخ . . والعكس بالعكس . .

(جـ) الخلايا التى تتحكم فى الكلام توجد على سطح المنطقة الصدغية من المخ . . على الجانب الأيسر فى معظم الناس . . ولكنها توجد على الجانب الأيمن إذا كان الشخص يستعمل يده اليسرى فى الكتابة . .

ولكن فى السنوات الأخيرة حدث تقدم تكنولوجى هائل لم يكن متاحا من قبل . . وعلى سبيل المثال لا الحصر نرى الميكروسكوب الإلكترونى يمكنه تكبير صورة الخلية أو العصب آلاف المرات . . ونرى البحوث الكيميائية والإلكترونية تكتشف وسائل نقل الإشارات من خلية عصبية إلى أخرى . . ونرى طرق التصوير الإشعاعى والكهربائى والرنين المغناطيسى . . إلخ إلخ وكلها تمكننا من دراسة خلايا المخ وهى فى حالتها الطبيعية أثناء الحياة العادية اليومية دون تدخّل فى وظائفها . . وبذلك يمكننا إجراء هذه الدراسات بسهولة على الإنسان أثناء حياته . . سواء كان جنينا أو طفلا أو مكتمل النمو . .

وقد أنفق العلماء آلاف الساعات وملايين الدولارات على بحوث تدرس كيفية تواصل الخلايا العصبية ببعضها البعض . . هل دخل أحدكم مبنى سنترال التليفون ؟ وهل نظر خلف اللوحات الكبيرة المليئة بأزرار حمراء وخضراء ؟ إنك لتدهش للعدد اللانهائى من الأسلاك تتداخل يمينا ويسارا . . وتعجب للمهندس الذى أوصلها كيف عرف طريقه وسط هذه الغابة الكثيفة من الأسلاك . .

إننا نرى الشىء نفسه تحت الميكروسكوب الإلكترونى فى تجاربنا على أمخاخ الحيوانات . . إنك ترى خلية عصبية وقد خرج منها بروز صغير

سرعان ما يتحول إلى سلك يطول ويطول كل ساعة . . ويعرّج فى مساره يمينا يسارا . . ويزاحم الأوعية الدموية والأوعية الليمفاوية . . ويزاحم آلافا من الأسلاك المتشابهة . . إلى أن يصل إلى خلية معينة بالذات على بعد بضعة مليمترات أو سنتيمترات أو فى أبعد مكان فى فص المخ نفسه . . أو يعبر الكوبرى الكبير corpus callosum الذى يصل بين فصى المخ ليصل إلى خلية معينة فى الجانب الآخر . . أو ينزل إلى الزحام النازل فى العمود الفقرى ليصل إلى خلية معينة فى نهاية النخاع الشوكى . . وبعد أن يصل السلك إلى هدفه يتم تكوين مادة عازلة حوله تماما كما يعزل الكهربائى أسلاك الشبكة الكهربائية وأسلاك التليفون . .

ولقد أجريت آلاف التجارب مرارا وتكرارا . . ووجدوا أن مسارات هذه الأسلاك تتكرر فى كل واحد من أجنة الحيوانات بالرسم والطريقة نفسها دون أى خطأ فى كل مرة . . مما يؤكد أنها تتم حسب تعليمات وراثية محددة موجودة فى كل خلية عصبية . . وقد درس العلماء أيضا النتيجة النهائية لهذه التوصيلات . . وخاصة فى الطفل فور الولادة . . وأثناء نموه يوما بعد يوم وعاما بعد عام . . ووصلوا إلى نتائج غاية فى الأهمية . . ليس فقط من الناحية النظرية العلمية بل أيضا لما تعكسه من استنتاجات مهمة تمس الحياة اليومية لأبنائنا وبناتنا . . وأخواتنا وزوجاتنا . . وكل البشر . . وسوف نوجز هنا بعضاً من آخر ما توصل إليه العلم تحت ثلاثة عناوين . . الأول هو اللغة . . والعنوان الثانى هو العلاقات الاجتماعية مع البشر الآخرين . . والعنوان الثالث هو الفروق فى توصيلات المخ بين الأولاد والبنات . .

واللغـــة ..

هى التركيبة الغريزية instinctive فى مخ الإنسان والتى تمكنه من توليف

اللغة كأهم وسيلة للاتصال مع باقى البشر . . وتسجيلها لنقل كل ذلك إلى الأجيال التالية . . وقد تحدثنا عن اللغة تحت عنوان الفروق بين الإنسان وباقى الكائنات الحية فى صفحة . . وقد عرفنا فيه أن توصيلات المخ فى الإنسان تجعله جاهزا لاستعمال اللغة . . أيا كانت الحروف والكلمات والأسماء التى يكتسبها من المجتمع الذى يعيش فيه . . فأساس اللغة هو صفة موروثة . . أما الحروف والكلمات فهى اكتساب . .

أما عن العلاقات الاجتماعية social order فقد ذكرنا فى أكثر من موضع أن الإنسان حيوان اجتماعى بطبعه . . يهلك إذا فُرضت عليه الوحدة . . وقد تكون الوحدة فعلية كما فى البحّار ينعزل فى جزيرة فى المحيط على سبيل المثال . . وهنا يهلك الإنسان لأنه لن يمكنه القيام وحده باحتياجات جسمه من طعام وشراب ومأوى . . وأمن وحماية . . وكلها احتياجات تستلزم التعاون بين مجموعات البشر . . وقد تكون الوحدة نفسية . . بمعنى أن يفقد الإنسان كل أحبائه لسبب أو لآخر . . ويصبح وحيدا فى مجتمع لا يجد الناس فيه وقتا للانشغال بمتاعب الآخرين . .

وغنى عن البيان أننا نرى فى علاقات البشر أنماطا تفوق الحصر . . فالعلاقات بين الناس فى مجتمع قبيلة أفريقية لها دستور ونظام يختلف اختلافا كبيرا عن علاقات الناس فى مجتمع الإسكيمو على سبيل المثال . . ويختلف هؤلاء عن مجتمع آخر فى مدينة أوربية . . وأخرى فى الصين . . وثالثة فى البرازيل . .

لنفترض أننا أخذنا مولودا جديدا فى أى واحد من هذه المجتمعات . . وأخذناه إلى مجتمع آخر . . بالتبنى مثلا كما نسمع عن شركات تتولى شراء الأطفال اليتامى من آسيا وفيتنام لتتبناهم أسرة فى أمريكا على سبيل المثال . .

كيف نتصور هذا الطفل بعد عشرين سنة ؟ إنه سوف يكون جزءا لا يتجزأ من مجتمعه الجديد الذى نشأ فيه . . بكل عاداته وتقاليده دون أى اختلاف . .

وقد أثبت العلماء أنه يوجد فى مخ الطفل عند ولادته تركيبة جاهزة اسمها (وصفة العلاقات مع باقى البشر) وتختلف هذه الوصفة عن مثيلاتها فى مخ الذئب أو الأسد الوليد . . وعن مثيلاتها فى مخ الطائر الذى خرج لتوه من البيضة . . ولهذه الوصفة فى مخ الإنسان ثلاث صفحات أساسية . . الصفحة الأولى تأمره بالبحث عن الآخرين للاندماج معهم . . (بعكس الصفحة المماثلة فى مخ الدب القطبى مثلا . . والتى تأمره بالعزلة والبعد عن كل الرفاق . . فيما عدا أوقات التزاوج وعندها يبحث من صنف الدببة عن أنثى واحدة فقط لا غير . . ولفترة وجيزة يعود بعدها إلى وحدته) . .

والصفحة الثانية تأمر الإنسان بترتيب قواعد السلوك الاجتماعى حسب ما يراه حوله من عادات وقيم . . فيبدأ الطفل من نقطة الصفر بالقاعدة رقم ١ تفرض عليه شيئا واحدا فقط . . وهو أن ينظر إلى الآخرين ويحاكى ما يفعلون وأن يتعلم عاداتهم وقيمهم بالتجربة والخطأ . . ففكرة الالتزام بقواعد السلوك الاجتماعى هى أساس موروث فى بنى الإنسان تماما كأساس اللغة . . أما القواعد نفسها فهى اكتساب من المجتمع تماما كما يكتسب الإنسان حروف وكلمات لغته من المكان الذى يعيش فيه . .

ونأتى إلى الصفحة الثالثة من وصفة العلاقات الاجتماعية . . وهى تتعلق بالمكانة والمستوى الذى يحتله هذا الإنسان فى المجتمع الذى يندمج فيه بالتدريج . . ولكى نوضح هذه النقطة دعونا نقارنها بما نراه فى مجتمع أقرب الحيوانات إلينا وهو مجتمع الشمبانزى . . وفيه نجد أن بعض أفراد الشمبانزى من الذكور تكون أكثر شراسة وعدوانية من باقى الذكور . . ونراها أعلى

صوتا وأكثر سرعة وقوة . . ونراها تستحوذ على نصيب أكبر من الطعام ونصيب أكبر من الإناث . . وتهتز سلطة هذا الذكر المتسلط إذا تحالف ضده ذكران آخران . . وقد يبحث هذا الذكر عن حليف رابع يتحالف معه ضد الذين تحدوا سلطته . . وهكذا . .

فالسلطة فى مجتمع الشمبانزى تنبع أولا من قوة الفرد نفسه . . ثم من تحالفاته مع الآخرين alliances . . والأفراد الأقل شراسة وعدوانية (وهم دائما يشكلون الأغلبية فى أى مجتمع) يقنعون بالتحالف مع واحد من الذكور المتسلطة والاحتماء به من عدوان الآخرين . . وقد وجد العلماء أن المبدأين نفسهما ينطبقان على مجتمعات البشر . . بدءاً بالأطفال يلعبون فى فناء المنزل . . وانتهاءً برؤساء الدول يلعبون بمصائر الأمم . . !!

ونأتى إلى العنوان الثالث . . وهو الفروق فى توصيلات المخ بين الأولاد والبنات . . وهى أهم رسالة يحملها هذا الكتاب . . وسوف نفرد لها فصلا خاصا فى هو الفصل العاشر . . ولكن يلزمنا قبل ذلك أن نستعرض نتائج نصف قرن من المساواة . . !!

الفصل التاسع

نتائج نصف قرن من المساواة ..!!

إن كل من يقرأ ولو بعضا من كتب التاريخ ليدهش لمدى الذل الذى تحملته النساء لقرون طويلة لا تحصى . . وقد تحدثنا فى فصل سابق (الفصل السابع) عما أسميناه الجزء الأحمر من الطيف النسائى . . وكذلك الجزء دون الأحمر منه . !

لقد فرضت مجتمعات كثيرة أقصى درجات العبودية والإذلال على المرأة . . و ساد فى كثير منها اعتقاد جازم بأن عقل المرأة يقصر عن بلوغ المستوى الذى يبلغه عقل الرجل . . وأن جسمها الضعيف يكفى بالكاد لتأدية مهمتها الوحيدة فى الحياة . . وهى استقبال الرجل . . وولادة الطفل وإرضاعه . .

فى الإمبراطورية الرومانية كنا نرى أحيانا امرأةً ذات نفوذ وسلطان . . ولكن إذا دققنا النظر لوجدنا هذا النفوذ ينبع من مجرد أنها دمية مدللة لصاحب النفوذ الحقيقى وهو القيصر أو أحد رجال البلاط . . وقس على ذلك كثيرات ممن وردت أسماؤهن فى كتب التاريخ . . وحتى عندما بزغ

عصر العلم الحديث لم يكن يسمح للمرأة أن يكون لها رأى فى شئون الأمة. . فعندما بدأ القرن العشرين كانت نساء أوربا وأمريكا ما زلن يتظاهرن من أجل الحصول على حق الانتخاب. . الانتخاب فقط وليس الترشيح. . !!

وبعد الحرب العالمية الثانية انقلبت الآية ١٨٠ درجة. . وبدأ طوفان جديد فى الاتجاه العكسى. . وأصبحت كلمة المساواة التامة الشاملة بين المرأة والرجل هى المقياس الذى تقاس به حضارة الدول. . وأصبح من حق المرأة أحيانا أن ترفع قضية ضد حكومة الولاية فى أمريكا إذا وجدت ولو ذرّة شبهة من التفرقة بين النساء والرجال فى اشتراطات التعيين أو مستوى المرتبات فى أية وظيفة أو فى أى مجال من مجالات التعليم أو التدريب أو العمل. .

وخاضت النساء هذه التجربة الجديدة بكل ما أوتين من قوة وحماس. . وأصبح موضوع حقوق المرأة وكأنه حمّى أصابت فجأة كل النساء. . وارتفعت درجة حرارة زعيمات الحركات النسائية. . وانعكس ذلك كله على الصحافة والإعلام والمؤتمرات والكتب والمحاضرات. .

وتغير شكل المجتمع فى خلال ثلاثين سنة وخاصة فى دول أوربا وأمريكا. . وأصبحت معظم المدارس والجامعات تستوعب الأولاد والبنات معا فى الفصول نفسها. . من سن الحضانة إلى التخرج. . وتوحّدت مناهج الدراسة للذكور والإناث. . وبالغت بعض المدارس فى محاولاتها لإلغاء الفروق بين البنات والأولاد فوحّدت دورات المياه. . واعتبرت أن الحياء وعدم الحياء هو مسألة شخصية يمارسها الولد أو البنت حسب قيمهما الخاصة دون تدخل من إدارة المدرسة. . وعندما كثرت حالات الحمل بين المراهقات وانتشر مرض الإيدز أصبحت وسائل الوقاية ووسائل منع الحمل متاحة فى

أكشاك بيع السجاير والمشروبات فى المدرسة الثانوية والجامعة . . لأن كل هذه الموضوعات مسائل شخصية لا دخل لإدارة المدرسة أو الجامعة بها . .

ودخلت المرأة هناك إلى كل مجالات العمل بلا استثناء . . حتى فرق الانتشار السريع فى قوات البحرية الأمريكية المسماة بالمارينز marines . . وحتى فى قيادة الطائرات التجارية والحربية والمقاتلات . . ورأينا المرأة قاضية . . ورئيسة للوزراء . . ومديرة لشركة تتعامل فى بلايين الدولارات . . ورائدة فضاء . . وقائدة لسيارة تاكسى . . وعاملة فى مصنع . . ونازحة للقاذورات فى مجارى نيويورك . .

وبعد أربعين سنة . . فى الثمانينيات . . أظهرت الإحصاءات أنه بالرغم من كل ذلك لم تأت الرياح بما كانت تشتهيه نفوس زعيمات الحركات النسائية . . وسوف نركز فى إحصاءاتنا على القارة الأمريكية بالذات لأنها تمثل فى هذا المجال أقصى ما يمكن أن تصل إليه هذه الحركات النسائية . .

ولنبدأ بفصول الدراسة الثانوية والجامعية فى كل واحدة من الولايات الأمريكية الخمسين . . وتتميّز هذه الفصول بأن الطلبة والطالبات يختارون بأنفسهم الكورسات والمقررات التى يتخصصون فيها majoring دون توصية من أحد . . فبالرغم من كل الفرص المتساوية بين الطلبة والطالبات . . وبالرغم من كل النوايا الحسنة عند الجميع . . إداريين وأساتذة وطلبة وطالبات . . فقد أظهرت الإحصاءات أن اختيارات الطالبات تختلف عن اختيارات زملائهم الذكور . . وأنهن يحصلن على أعلى الدرجات فى مواد دراسية تختلف عن تلك التى يبرع فيها نسبة أكبر من الذكور . .

فعلى سبيل المثال وُجد أن كورسات الدراسات التخصصية فى اللغات الأجنبية يحتلها ٧٥ ٪ من الطالبات و٢٥ ٪ فقط من الطلبة . . بعكس

كورسات الهندسة مثلا والتى نجد فيها أغلبية ساحقة ٨٦ ٪ من الطلبة دون الطالبات . . وفى كليات الطب نجد أعداد الطلبة والطالبات شبه متساوية . . ولكننا نجد أقلية فقط من الطالبات يخترن تخصصات مثل الجراحة بكل فروعها أو طب الحوادث casualty أو طب الحروب . .

حتى بعد التخرج فقد وجدت الإحصاءات أرقاما غاية فى الطرافة . . ففى سنة ١٩٦٠ كان ٧٠ ٪ من موظفى الشباك فى البنوك bank tellers أى الموظفين الذين يتعاملون مع الجمهور . . كانوا من النساء . . وارتفعت هذه النسبة إلى ٩٣ ٪ فى عام ١٩٨٠ . . وبالرغم من كل ذلك فقد احتل الرجال ٩٩٪ من وظائف الإدارة العليا فى البنوك على مدار هذه السنوات دون تغيير . .

وأطرف من ذلك كانت الأرقام عن مهن الطب والتمريض والتعليم . . ففى الولايات المتحدة الأمريكية تحتل النساء ٥٠ ٪ من وظائف الأطباء و٩٦٪ من وظائف التمريض و ٨٣ ٪ من وظائف التدريس فى المدارس الابتدائية . . وبالرغم من ذلك فإن ٩٩ ٪ من مديرى المستشفيات هم من الرجال . . و٨١ ٪ من نظار المدارس الابتدائية هم أيضا من الرجال . .

وأطرف وأطرف من ذلك كله كانت إحصائية شاغلى وظائف الإدارة العليا . . فقد وجدوا أن الرجال يحتلون ٩٠ ٪ من أماكن مديرى الشركات الكبرى . . والمهندسين المدنيين . . والجراحين . . والقضاة . . ومحافظى الأقاليم . . ورؤساء الأقسام فى الجامعة . .

وأظهرت الإحصاءات أن متوسط دخل النساء العاملات على مستوى الولايات المتحدة الأمريكية كلها . . وفى جميع المستويات لا يزيد عن ثلثى متوسط دخل الرجال العاملين . . وأن هذه النسبة لم تتغير قيد أنملة منذ أربعين سنة إلى الآن . .

وأشارت الإحصاءات أيضا إلى اختيار مارجريت تاتشر رئيسة لوزراء بريطانيا عام ١٩٧٩ . . وأشارت فى الوقت نفسه إلى أن عدد النساء اللائى يعملن فى مجال السياسة فى بريطانيا قد انخفض عام ١٩٨٠ عنه فى عام ١٩٤٥ بعد الحرب مباشرة . . وأن الوزيرات فى جميع الحكومات البريطانية فى الخمسين عاما الأخيرة يمكنهن عمل حفلة تجمعهن جميعا فى صالون منزل صغير . . بينما يحتاج الأمر إلى قاعة مؤتمرات كبرى لتجمع جميع الوزراء الذكور فى الفترة نفسها . .

وتحدثت الإحصاءات أيضا عن مجال تتساوى فيه الفرص تماما بين الجنسين . . وهو أساتذة وأستاذات الجامعات فى بريطانيا فى مختلف الكليات . . ولكى تتساوى فرص المقارنة فقد اختاروا لهذا الإحصاء أستاذات أرامل أو غير متزوجات وليس عندهن أطفال صغار . . وأظهر الإحصاء أن الأساتذة الرجال يهتمون أكثر بأعمال البحث ونشر الرسائل . . وبالتالى يحصلون على المزيد من فرص الترقى إلى مناصب أعلى ونفوذ أكبر . . كرئاسة القسم أو عمادة الكلية . . بينما أن مجال الاهتمام الأكبر عند الأستاذات كان هو التدريس الفعلى والخدمة التعليمية للطلبة والطالبات . . والاختلاط بهم وتشجيع المتفوقين منهم . . إلخ إلخ إلخ . .

وفى استطلاع للرأى بين آلاف العاملين والعاملات فى مختلف مستويات الوظائف فى بريطانيا طُلب من المشتركين فيه دون ذكر أسمائهم أن يجيبوا بنعم أو لا على جملتين : الأولى تقول (أنا أسعد أكثر عندما أنجز عملا أريد أن أعمله) . . أما الجملة الثانية فتقول (أنا أسعد أكثر عندما أنجز عملا يزيد من سعادة الآخرين) وغنى عن البيان أن الجملة الأولى حصلت على تأييد ثلثى الرجال . . بينما حصلت الجملة الثانية على تأييد أكثر من ٧٠ ٪ من النساء . .

من كل ذلك تظهر حقيقة واضحة . . وهى أن معظم النساء يفضلن ويخترن بكامل حريتهن الوظائف والأعمال ذات البعد الإنسانى والاجتماعى . . ويبعدن بكامل حريتهن عن الوظائف والأعمال التى تتميز بالتنافس والمخاطرة . . وطلب السيطرة والنفوذ . . وهو ما يؤكد أن الدوافع الداخلية motivation مختلفة بين الجنسين دون أدنى شك . .

فلن يصل إنسان إلى قمة السلطة فى أى مجال من مجالات العمل إلا إذا كانت رغبته فى ذلك رغبة طاغية قوية تحرك كل طاقاته فى هذا الاتجاه . . وعليه أن يعمل من أجل ذلك ليل نهار . . وسوف يكتشف أن عليه أيضا أن يضحى فى سبيل ذلك بجزء لا يستهان به من صحته . . ووقته . . وصداقاته . . وعلاقاته الأسرية . . وأحيانا من سعادته الشخصية . . ولا نجد كثيرا من النساء مستعدات لمثل هذه التضحيات . .

وليس غريبا أن قيمة الرجل فى نظر نفسه تكون أكثر ما تكون فيما يصل إليه من إنجاز فى مجال العمل . . وليس فى مجال الأسرة والبيت . . فالعمل يحتل المركز الأول فى وجدان الرجل أيا كان مستواه العلمى والاجتماعى . . بدءاً من الفلاح وعامل المصنع إلى سائق التاكسى إلى المهندس وأستاذ الجامعة . . إلى عضو البرلمان ورئيس الحكومة . .

حتى العاطلين بالوراثة نجد كل واحد منهم . . أو معظمهم . . يبحث لنفسه عن عمل ينتسب إليه حفاظاً على احترامه لنفسه وعلى كرامته فى نظر نفسه وفى نظر الآخرين . . فنجد واحدا ينشئ جمعية خيرية يرأسها ويساهم فى أعمالها . . وآخر ينشئ جريدة أو مجلة ويتبنى فيها كُتّابا ناشئين . . وآخر يشترى فريقا رياضيا ويشغل وقته بأن ينافس به الآخرين . . إلى آخر ما يمكن أن يتفتق عنه أذهانهم من أفكار يمكن تحقيقها بالمال . . ولا تجد أبدا ثريا

يحترم نفسه يقنع بقضاء نهاره فى البيت. . بعكس ما تشعر به معظم النساء. .

وفى سن المعاش عندما يحرم الإنسان من العمل فإن الرجل عادة ما يشعر بأنها نهاية الكون بالنسبة له. . وقد يذوى ويذبل كالشجرة قُطعت جذورها. . إلا إذا كان قد استعد لهذه المرحلة بهواية يمارسها أو عمل جديد يعمله. . أما عند النساء فإن رد الفعل يكون مختلفا تمام الاختلاف. . وتستمر الدنيا بالنسبة لها وكأن لم يتغير شىء تقريبا. .

لأن العمل خارج البيت ليس جزءاً أساسيا من التركيبة النفسية للمرأة بأية حال من الأحوال. .

الفصل العاشر

الفروق فى توصيلات المخ..
بين الأولاد والبنات..

تحدثنا فى الفصل السابق عن الإحصاءات والملاحظات بعد خمسين سنة من قوانين صارمة . . وإجراءات حاسمة . . تفرض كلها المساواة بين المرأة والرجل فى جميع مجالات التربية والتعليم والعمل . . وقد أظهرت هذه الإحصاءات والملاحظات أنه بالرغم من كل ذلك فإن الطبيعة الفطرية فرضت نفسها على الجميع . .

فى السبعينيات ظهرت فى مجال التربية والتعليم اختبارات خاصة سميت باختبارات الذكاء I Q tests . . استعملها علماء النفس والأعصاب كما استعملها أيضا خبراء التربية . . وكان لهذه الاختبارات هدفان . . الأول هو دراسة الإمكانات الفطرية الطبيعية لكل طفل من أجل أن يتم توجيهه نحو أنسب المجالات له فى الدراسة والتدريب . . وكان الهدف الثانى هو دراسة حالات مرضى النفس والأعصاب لتسهيل علاجهم . . وفوجئ العلماء بوجود اختلافات بين الأولاد والبنات فى جميع الأعمار . كانت البنات

يتفوقن على الأولاد فى اختبارات معينة . . بينما يتفوق الأولاد عليهن فى اختبارات أخرى معينة . . وكانت هذه النتائج حاسمة وثابتة . . وتتكرر فى كل مرة يجرى فيها هذا الاختبار أو ذاك . . وكانت النتائج تتشابه من مركز للبحوث إلى آخر وفى جميع الولايات . .

وقامت قيامة زعيمات الحركات النسائية . . وثارت ثائرتهن . . وتناثرت الاتهامات بين فريق يؤكد صحة الاختبارات . . وفريق آخر يتهم واضعى الاختبارات بالتحيز فى طريقة صياغتها . . وأصبحت مثل هذه المناقشات هى الخبز اليومى لبرامج الأحزاب السياسية المختلفة . . والمسئولين عن المدارس . . والمسئولين عن نقابات العمال . . واصطبغ الموضوع بصبغة سياسية كادت تطغى على النواحى العلمية والموضوعية إلى حد كبير . .

وقد كانت من أهم وجهات النظر التى طرحت هى المقولة التى تقول إن المخ والجهاز العصبى يبدأ بالحياد والمساواة التامة sex neutrality عندما يولد الطفل . . ولكن المجتمع بأكمله بدءاً من الأم والأب . . ثم الإخوة . . ثم الأقارب . . ثم المدرسة . . ثم جهة العمل . . هو الذى يفرض تدريجيا على الأولاد والبنات نوعين مختلفين من السلوك والمعاملة . . وأن هذا التأثير من جميع أركان المجتمع هو الذى يؤدى فى النهاية إلى كل ما نراه من فروق بين الذكور والإناث social moulding . .

وبدخول الكومبيوتر إلى الساحة أصبح فى الإمكان صياغة عشرات من أصناف الاختبارات النفسية والعصبية والتربوية والمهنية . . وأصبح فى الإمكان إجـــراء هذه الدراســـات على آلاف وآلاف من الأولاد والبنات والرجال والنساء فى جميع مستويات المجتمع . . من سكان العشوائيات إلى سكان القصور . . وفى جميع الأعمار . . وفى جميع البلاد . .

ولم يكن الهدف الأساسى لكل هذه الاختبارات هو محاولة نفى أو إثبات وجود فروق بين الجنسين. . بل كانت تهدف أصلا كسابقاتها فى السبعينيات إلى دراسة وسائل التعليم. . ومدى تأثير دخل الأسرة على مستوى ذكاء الأطفال واستجابتهم للتدريب. . ومدى تأثير الاختلافات العرقية بين مختلف طوائف الشعب الأمريكى. . وكلهم مهاجرون. . بعضهم من شمال أوربا. . وبعضهم من جنوبها. . وآخرون من أفريقيا. . ومن آسيا. . وهكذا. .

وفوجئ العلماء أيضا بوجود اختلافات ثابتة لا جدال فيها بين الأولاد والبنات والرجال والنساء. . فى كل واحد من قطاعات المجتمع دون استثناء. . ولم يعد فى الإمكان إنكار حقيقة واضحة. . حقيقة تقول إن الأولاد والبنات لا يختلفون فقط فى تركيبة الشكل الخارجى للجسم. . بل إنهم قطعا يفكرون أيضا بطريقتين مختلفتين. . وأن هذا يرجع إلى اختلاف عضوى bio-logical أساسى فى تركيبة المخ والجهاز العصبى دون أدنى شك. .

وقبل أن أدخل فى بعض تفاصيل الاختلاف العضوى فى تركيبة المخ دعونى أذكّر القارئ باختلافات أخرى نعرفها جميعا وليس لها أية صلة بأعضاء الحمل والولادة. . فقد أثبتت التحاليل الكيميائية أن نسبة البروتينات إلى الدهون فى إجمالى تركيب جسم الأولاد عند سن البلوغ هو ٤٠ ٪ بروتين إلى ١٥ ٪ دهون. . بينما أن النسبة نفسها فى جسم البنت فى السن نفسه هى ٢٣ ٪ بروتين إلى ٢٥ ٪ دهون. . ويتم توزيع هذه الدهون الزائدة فى أجسام البنات فى الأطراف وحول المفاصل. . لتعطى الأذرع والسيقان مظهرا خارجيا ناعما خاليا من تضاريس العضلات التى تظهر بوضوح فى أجسام الأولاد. .

وأثبتت التحاليل أيضا أن عدد كريات الدم الحمراء أكثر فى الأطفال الذكور منه فى الأطفال الإناث . . حتى دون أن يمارس أى منهم أو أى منهن أى ألعاب رياضية . . ومن المعروف أن زيادة عدد كريات الدم الحمراء يزيد من سرعة توصيل الأكسجين إلى العضلات والقلب . . فكأن جسم الولد يُجهّز منذ الصغر استعدادا لأنواع من العمل ليست مفروضة على الإناث . .

وأثبتت الإحصاءات أن متوسط الطول عند الرجال هو أكثر بنسبة ٧ ٪ من متوسط الطول عند النساء . . وكلمة متوسط هنا تعنى أننا قد نجد آلافا من النساء طوال القامة وآلافا من الرجال قصار القامة . . ولكن يبقى المتوسط ثابتا وحقيقيا بالنسبة إلى مجموع القبيلة أو الشعب أو الجنس البشرى على وجه العموم . . وهى حكاية نعرفها ونمر عليها كل يوم مرور الكرام . .

ويحضرنى هنا تعليق طريف لأحد كبار الأساتذة الأمريكيين بعد أن قضى عمره كله فى هذه البحوث . . ففى ختام إحدى المحاضرات رفع ذراعيه مستغربا وقال : كيف نشك فى وجود هذه الاختلافات العضوية فى كل واحد من أعضاء جسم المرأة . . وجسم الرجل . . هل يمكن أن ننسى أن كل خلية فى جسم الأنثى تحمل جينات إكس إكس بينما أن كل خلية فى جسم الرجل تحمل جينات إكس واى . . ؟؟ وهل ننسى أن هذا ينطبق على كل عضو من أعضاء الجسم بدءاً من أصابع القدمين إلى شعر الرأس . . بما فى ذلك تلافيف المخ وشبكية العين . . ؟؟

ونعود إلى وظائف المخ وتوصيلاته . . واختلافها عند الذكور والإناث . ولنبدأ بالأعمال والاختبارات التى تستلزم من صاحبها أن يفكر بطريقة ثلاثية الأبعاد . . فلكى نرسم شكلا مكعبا من عدة زوايا على سبيل المثال فإن علينا أن نتخيله فى أذهاننا . . وأن نتخيل المكان الصحيح لكل زاوية من زواياه قبل

أن يمكننا أن نرسمه . . ولاعب الكرة الذى يلمح زميله يجرى فى الناحية الأخرى من الملعب يتخيل فى أقل من لمح البصر المكان الذى سوف يكون فيه هذا الزميل بعد نصف ثانية . . والخط الذى سوف تسير فيه الكرة إذا ضربها بزاوية معينة لتسقط أمام قدم هذا الزميل . . والطيار الذى يناور بطائرته ليتمكن من إسقاط طائرة معادية تدور في رأسه آلاف من الصور كل ثانية يحسب بها كل الزوايا وكل السرعات التى تساعده فى إتمام مهمته بنجاح . .

هذا هو التفكير ثلاثى الأبعاد three dimensional . . وهو ما يمكن اختباره بسهولة بالورقة والقلم . . أو بأجهزة الكومبيوتر . . باختبارات تتدرّج فى الصعوبة بحيث تناسب جميع الأعمار . . وقد ثبت تفوق الرجال فيها تفوقا ساحقا لا يعطى أى فرصة لنقاش أو جدال . . فقد لوحظ أن عدد الأولاد والشبان والرجال الذين حصلوا على الدرجات النهائية كان ضعف عدد البنات والشابات والنساء اللائى حصلن عليها . . أما فى الدرجات المتوسطة فلم يتمكن إلا ٢٥ ٪ فقط من النساء أن يجاروا أو يتفوقوا على المتوسط العام للذكور . .

وعندنا فى هذا المجال أيضا مثل قريب وهو لعبة الشطرنج فى الاتحاد السوفييتى . . فقد ألغت الشيوعية الفروق بين الرجال والنساء . . وفرضت على الجميع ألعابا معينة مثل الباليه والجمباز والشطرنج . . من أجل تفريخ أجيال من الموهوبين ينافس بها السوفييت باقى الدول . . وكان تشجيع الدولة بلا حدود فى هذه المجالات الثلاثة . . وكان كل طفل يحاول أن يتفوق فى إحداها لأن هذا كان يعطيه امتيازات أكثر بكثير عن زملائه . . ولكن الأطفال الذكور احتكروا التفوق فى لعبة الشطرنج . . لأنها اللعبة الوحيدة التى شجعتها الدولة وكانت تستلزم بالذات تفكيرا ثلاثى الأبعاد . . وهو ما يتفوق فيه مخ الرجل عن مخ المرأة دون جدال . .

وقد وجدت الاختبارات نتائج مماثلة أيضا فيما يخص علوم الرياضيات mathematics . . ولوحظ هذا الفرق فى جميع مستويات علوم الحساب والرياضيات . . بدءا من مدارس الروضة إلى الابتدائى إلى الثانوى . . وقد حدد أحد الإحصاءات فى القارة الأمريكية الفرق بين الأولاد والبنات بطريقة طريفة . . فقد ختم التحليل المفصل لنتائج الإحصاء بعبارة تقول إننا فى مقابل كل بنت تفوقت فى اختبارات الرياضيات وجدنا ثلاثة عشر ولدا فى المستوى نفسه . .

أما على المستوى الجامعى فقد حسم الطلبة والطالبات بأنفسهم هذا النقاش . . فكان عدد الطالبات اللائى اخترن تخصص الرياضيات لا يزيد عن عشر عدد الطلبة . . وكفى الله المؤمنين شر القتال . . ! !

ولم يكن الهدف من كل هذه الاختبارات والإحصاءات هو مجرد بحوث أكاديمية أو مناقشات للذكرى والتاريخ . . فقد أصبح لها ناتج عملى بدأ تطبيقه فى كثير من الولايات الأمريكية . . ألا وهو إعادة النظر فى مقررات الرياضيات وطريقة تدريسها فى الفصول التى تجمع الأولاد مع البنات . .

ونأتى الآن إلى مجالات أخرى أظهرت البحوث فيها تفوق البنات على الأولاد تفوقا ساحقا . . ألا وهى مجالات التعبير . . سواء باللغة . . أو الموسيقى . . أو الرسم . . ففى اللغات ثبت أن البنات يمكنهن إجادة النطق والهجاء الصحيح أسرع بكثير من الصبيان فى السن نفسه . . وكان فى مقدورهن تعلم لغة أجنبية إضافية أيضا فى سن أصغر بكثير من أى طالب من الذكور . .

واكتشف خبراء التعليم فى أمريكا أن كثيرا من الأولاد كانوا يُحوّلون إلى الإخصائى النفسى وإخصائى عيوب الكلام على اعتبار أن بهم عيوباً خلقية

كالثأثأة أو التهتهة تحول بينهم وبين اللحاق بزملائهم وزميلاتهم فى الفصل نفسه . . ثم تبين أخيرا أن معظمهم أولاد عاديون . . ولكنهم ظُلموا بالمقارنة بينهم وبين البنات فى هذا المجال . .

وتبدأ البنات الكلام فى سن أصغر من الأولاد . . ولا يخطئن فى الهجاء أو الأجرومية أو تشكيل الحروف . . وفى حصص الرسم تتفوق البنات على الأولاد في سهولة ويسر . . ومثل ذلك أيضا فى حصص الموسيقى . . حيث لا تخطىء آذانهن أبدا الفرق البسيط جدا فى الأداء . . والذى قد تخطئه آذان المستمعين من الكبار . .

وقد ثبتت أيضا ملاحظات غاية فى الطرافة . . وفى الوقت نفسه لا علاقة لها بأى نوع من التنشئة أو التربية أو التعليم . . فالبنات يتمتعن بتفوق ساحق فى ثلاثة من الحواس الخمسة التى يتميز بها البشر . . وهى السمع . . والشم . . واللمس . . وتظهر هذه الاختلافات بوضوح فى الأطفال حديثى الولادة وتستمر طول العمر . .

وقد لا تتمكن الزوجة من النوم بسبب قطرات الماء من حنفية فى آخر البيت . . بينما أن الزوج يتعجب لأنه لا يسمع أى شىء . . وفى مدارس كورال الأطفال نجد ستة من البنات مقابل ولد واحد يمكنه متابعة زملائه فى الأداء دون أخطاء . .

وحاسة الشم القوية عند البنات والنساء هى ظاهرة معروفة للجميع منذ القدم ولم تكن فى حاجة إلى اختبارات الأخصائيين الأمريكيين ليثبتوها . . ونجدها ترد كثيرا فى طرائف القصص والأفلام . . كمثل الزوجة التى لا تخطىء أنفها أبدا آثار عطر غريب فى سيارة الزوج . . بعد أسبوع كامل من حادثة اللعب بالذيل . . !!

ومثل ذلك أيضا حاسة اللمس عند النساء . . سواء فى أعصاب اليد أو فى كل سنتيمتر من جميع أجزاء الجسم . . وقد أجريت اختبارات حساسية اللمس وحساسية الألم على آلاف وآلاف من النساء والرجال والأولاد والبنات . . بل الأطفال حديثى الولادة الإناث والذكور . . وثبت أن أقل درجات هذه الحساسية عند الإناث تفوق بمراحل كبيرة أعلى الدرجات عند الذكور . . وفى جميع مراحل العمر . . بدءا من الطفل ذى اليوم الواحد إلى سن السبعين والثمانين . .

وعند دراسة حاسة البصر وجد الباحثون اختلافات غاية فى الطرافة والعجب . . فقد وجدوا أن الذكور يتمتعون بميزة تركيز قوة الإبصار فى بؤرة العين . . وكذلك سهولة الإحساس بالفرق فى المسافات والعمق بين المرئيات فى بؤرة مركز الإبصار . . وتتركز هذه المميزات فى البؤرة فقط بحيث إنهم لا يكادون يرون الأشياء التى تبعد عشر درجات فقط عن مركز الإبصار . . أما فى النساء فقد وجد الباحثون عندهن قدرة عجيبة لا توجد فى الرجال . . فبالرغم من تفوق الرجال فى قوة الإبصار البؤرى . . فإن النساء يتمتعن باستمرار وضوح الرؤية إلى عشرين وثلاثين درجة على كل جانب من البؤرة . . وهو ما نسميه wider peripheral vision . .

إن المرأة قد تنظر فى عينيك أثناء الحديث . . ولكنها ترى فى الوقت نفسه . . والسهولة وبالوضوح نفسهما تقريبا كل ما يفعله شخص آخر على يمينك وآخر على اليسار . . وعندما تنظر المرأة إلى جانبها الأيمن أثناء سيرها فى الطريق فهى بالتأكيد تراك جيدا وأنت تسير خلفها . . وترى وجهك بدرجة كبيرة من الوضوح . . !! وفى الفحص الميكروسكوبى نجد فى شبكية عين الأنثى عددا من خلايا الضوء الحساسة موزعة على جانبى بؤرة العين أكبر بكثير من العدد المقابل فى عيون الذكور . .

وقد ساهمت بحوث جراحة المخ أيضا فى استكمال كثير من المعلومات عن وظائف المخ . . وذلك عن طريق الدراسات التحليلية الدقيقة لحالات المرضى الذى يصابون بالصرع أو بأورام تستلزم استئصال أجزاء من فصوص المخ . . وعلى مر السنين تجمعت المعلومات وكأنها قطع متناثرة صغيرة تضيف كل منها لمسة إلى الصورة الكبيرة المتكاملة لوظائف المخ . . واختلافاتها بين الرجال والنساء . . وقد اتفق العلماء على حقيقتين لم يعد فيهما مجال للنقاش :

أولها أنه يوجد درجة تخصص عالية فى وظائف الأجزاء المختلفة من المخ عند الرجال . . فإذا استؤصل جزء ما منها فإن وظيفته تُفقد تماما . . ولا يمكن لباقى أجزاء المخ تعويضها . . وبالعكس عند استئصال جزء ما من فصوص المخ فى النساء فإننا نجد الخسارة الوظيفية محدودة . . لأن وظائف المخ فى النساء تتوزع على نطاق أوسع فى أجزاء المخ . . بل على كلا الجهتين اليسرى واليمنى . .

وتفسر هذه الدرجة العالية من التخصص أيضا ما نلاحظه جميعا عندما يلعب أطفالنا معا . . فالولد يمكنه التركيز على الشىء الذى يعمله لفترات أطول دون انقطاع . . بينما يمكننا أن نصرف انتباه البنت بمنتهى السهولة عن الشيء الذى تعمله . . ونجد أفكارها تقفز من فكرة إلى أخرى ومن عمل إلى عمل دون تركيز شديد . . فإدراكها يحيط بما حولها بصورة أشمل وأوسع . . بعكس مخ الرجل الذى لا يحيط إلا بجزء واحد من الصورة التى حوله . . ثم يركز عليها . . وعليها فقط . .

والحقيقة الثانية التى اتفق عليها العلماء هى أن الكوبرى الكبير الذى يصل بين فصى المخ والمسمى corpus callosum هو أكبر حجما وسمكا فى

النســاء منه فى الرجــال . . وهـو دليل مــادى لا يـمكن إنكاره عـلى وجـود اختلاف عـضوى أساسى فى توصيلات المخ بين الرجل والمرأة . . وتتوافق هذه الحقيقة أيضا مع ما ذكرناه من تعاون أجزاء متعـددة على الجانبين فى مخ الأنثى لتأدية الوظيفة نفسها التى يؤديها جزء واحد محدد فى مخ الرجل . .

وتفسر هذه الحقيقة أيضا ما نلاحظه جميعا عند الـرجل من فصل شبه تام بين الحقائق والعواطف . . بعكس المرأة . . فمعظم الحقائق والأفعال تتركز عند الرجل فى الفص الأيسر من المخ . . بينمـا تتـركـز مـعظم العـواطف فى الفص الأيمن . . أما فى النساء فإن الحقائق والأفعال . . والعواطف . . تتوزع كلها بدرجات مختلفة على كلا الفصين الأيمن والأيسر . . يساعدها فى ذلك الكوبرى الكبير الذى يصل بين الاثنين . .

إننى أؤكد أن هـذا الحديث سوف يثير الكثير من الحوار والنقاش . . ولذا فإننى قد جمعت هنا بعضا من المراجع العالمية فى هذا المجال . . مرتبة حسب الحروف الأبجدية . .

وسوف نلاحظ أن أكثرها قد صدر فى خلال السنوات العشر الأخيرة . . بعد ظهـور نتائج كل هذه البحوث . . ولذلك فإن كثيراً من الحديث الذى نتناوله لم يكن ثابتاً من الناحيـة العلميـة إلا فى السنوات العـشر الأخـيرة فقط . . .

Belenky , M.F. , et al.: Women's Ways of Knowing, Basic Books, New York , (1986).

Goy , R.W. , and McEwen , B.S. , Sexual Differentiation of The Brain, Massachussets Institute of Technology Press , Cambridge, Mass. , (1980)

DeLacoste , C. , and Holloway , R.L. , Sex Differences in The Fetal Human Corpus Callosum , Human Neurobiology , Vol. 5, P. 93 - 96 , (1986)

De Vries , G.J. , et al. (eds.) , Sex Differences in the Brain, The Relationship Between Structure and Function , Elzevier , Amsterdam , (1984).

Equal Opportunities Commission : Women and Men in Britain , a Statistical Profile , HMSO , London , (1987)

Fausto-Sterling , A. ,Myths of Gender , Basic Books , New York , (1985)

Hertz , L. , The Business Amazons (..!!), Methuen Paperback , London , (1986)

Kimura , D. , Male Brain , Female Brain : The Hidden Difference , Psychology Today , November 1985 , P. 51 - 58 , (1985)

Kimura , D. ,Are Men's and Women's Brains Really Different ? Canadian Psychology , Vol. 28 - 2 , P. 133 - 147 , (1987)

Levin , M. , Feminism and Freedom , Transaction Books, New Brunswick, N.J. , (1987)

McGuiness , D., When Children Don't Learn , Basic Books, New York , (1985)

McGuiness , D. , (ed.) , Dominance Aggression , and War, Paragon House , New York , (1987)

Moir , A. and Jessel , D. , Brain Sex : The Real Difference Between Men & Women , Mandarin , U.K. , (1991) , (reprinted 16 times , last 1996).

Reinisch , J.M. , et. al , (eds.) Masculinity and Femininity , Oxford University Press , (1987)

Rossi , A.S. , (ed.) Gender and The Life Course , Aldine Publishing Co. , New York , (1985)

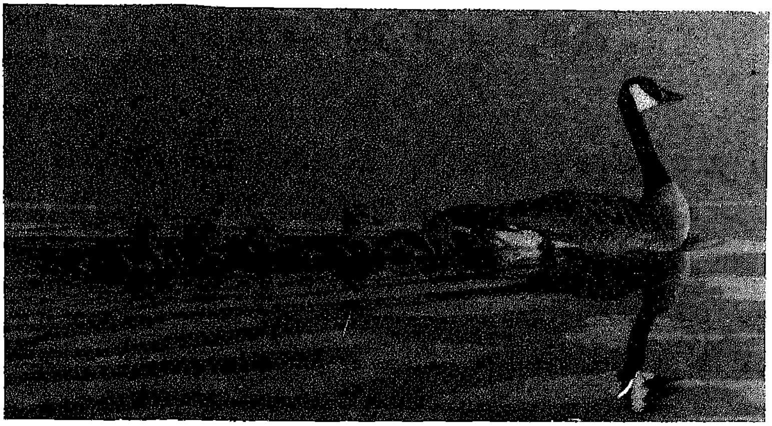
Stein , S. , Girls and Boys: The Limits Of Non - Sexist Rearing , Chattu and Windus , London , (1984)

الفصل الحادى عشر
طرق التواصل مع الآخرين..
واختلافها بين الرجل والمرأة..

عندما يفقس الطير أو الكتكوت من البيضة فإن غرائزه الموروثة تملى عليه أولى الحقائق المهمة فى حياته . . ألا وهى التعرّف على أمه . . وقد أجريت على هذه النقطة بالذات آلاف البحوث والملاحظات لمعرفة كيف يتم ذلك . . فالجملة المغروسة فى مخ الكتكوت تأمره بأن ينظر حوله فور خروجه من البيضة . . إلى أن يعثر على أقرب جسم كبير متحرك وأن يعتبر أن هذا الشيء هو أمه . . وأن يطبع صورتها فى مخيلته . . ويتبعها أينما ذهبت . .

وقد صور العلماء أفلاماً غاية فى الطرافة لطيور أو لكتاكيت عُرضت عليها فور فقسها أشكالاً وأنواعاً مختلفة من الأمهات المزيفة . . فإذا وُضعت البيضة لتفقس فى عش نوع آخر من الطيور فإن كلا من الأم والكتكوت كانا يأخذان العلاقة المزيفة كقضية مسلّمة دون أى شكوك . . وتقوم الأم بإطعامه مع باقى كتاكيتها دون أية تفرقة . . وكانت المشكلة تحدث عندما يصل هذا الطائر إلى سن البلوغ إذا كان ذكراً ويحاول التقرب إلى أنثى من نوع أمه المزيفة . . فقد كانت محاولاته كلها تبوء بالفشل وترفضه هذه الإناث لأنه

يختلف عن صورة الذكور المطبوعة غريزيا فى مخها الصغير . . وإذا وضعت بيضة الدجاج بجانب بطة أو أوزة حتى تفقس فإن الكتكوت كان يعتبرها أمه دون نقاش . . وكان يتبعها ليل نهار دون تردد أو كلل . . وكان بعض هذه الأمهات المزيفة قطة أو كلبة . . ! أو حتى الحذاء الأبيض الكبير boot الذى كان يلبسه أحد الباحثين . . وفوجئ بكتكوتين يجريان خلفه . . ويتبعانه من غرفة إلى غرفة فى معمل البحوث . . !!



وقد أظهرت البحوث أنه فى الطفل البشرى يوجد أيضا الكثير من مثل هذه التعليمات التلقائية الغريزية . . كمثل حاسة اللمس القوية التى تتركز فى شفتى الطفل وتُمكّنه من تحسس طريقه إلى ثدى أمه ثم التمسك به فى عزم وإصرار . . ومنها أيضا أن حاسة السمع عند الجنين فى بطن أمه تُمكّنه من معرفة صوت أمه . . وهى معلومة جديدة جعلت أطباء الولادة يسرعون بتسليم الطفل إلى أمه لكى تحدثه وتناغيه بعد دقائق من الولادة . . وهى معلومة قد يستغلها بعض الآباء أيضا للتقرب إلى أطفالهم حتى قبل أن يولدوا . . !!

وقد وجد الباحثون فى الأطفال حديثى الولادة ملاحظات أخرى طريفة تنعكس على الموضوع الذى نحن بصدده . . وهو الاختلاف بين الذكور والإناث . . فمنذ الأسبوع الأول من الولادة نرى البنت تستجيب أسرع لأصوات المداعبة والمناغاة . . وتحس أكثر بالفرق فى درجة العواطف والحنان فى هذه الأصوات أضعاف أضعاف ما يحس به الأولاد . . ونلاحظ أيضا أن البنت فى هذه السن يمكنها أن تركز عينيها فى عينى أمها أو أى شخص آخر حتى دون أى كلام . . eye contact ولفترة أطول بكثير مما يفعله معظم الأولاد . .

وتزيد قوة وفترة تركيز العين فى العين إذا كانت مصحوبة بالحديث أو المناغاة . . وقد ثبتت هذه الفروق بين الأولاد والبنات فى عشرات التسجيلات المصورة فى عشرات معامل البحوث . . بحيث أصبحت لا تحتمل أى نقاش . .

ويمكن للطفلة وعمرها أربعة شهور أن تفرق بين صور الأشخاص الذين تعرفهم وبين صور الغرباء . . بينما لا يصل معظم الأولاد إلى هذه القدرة إلا عند ستة أو سبعة شهور . . وتأنس الطفلة فى هذا السن أكثر إلى اللعبة التى تشبه الأجسام الحية . . وخاصة إذا كان لها عينان وأذنان كبيرتان وجلد أو فراء ناعم . . بينما يلفظ الولد هذه اللعبة ويستلفت نظره أكثر اللعبة ذات الأشكال المربعة أو المستديرة ذات الألوان الزاهية . . وهو ما يفسر غرام الأطفال الإناث بلعبة العروسة والدبة . . وغرام الأطفال الذكور بالألعاب الميكانيكية . . وهو ما يرد أيضا على المناقشات البيزنطية اللانهائية والتى كانت تدّعى أن التفرقة بين الأولاد والبنات تبدأ فى الصغر . . وأن الذى يقوم بهذه التفرقة هو الأبوين والأسرة والمجتمع . .

إننا نرى الأم عندما تلعب مع طفلتها فهى تحضنها وتهدهدها وتحدثها بالهمس وتغنى لها بصوت خفيض . . أما عندما تلعب مع طفلها فهى تجرى وراءه وتجعله يجرى وراءها . . وتصارعه وترفع صوتها ويرفع صوته بالضحك والصراخ . . فمع البنات نرى المداعبة خافتة حنونة . . ومع الأولاد نراها صاخبة عالية . . وقد ثبتت هذه الملاحظات فى ثمانين بالمائة من الأطفال الإناث والذكور . . وثبت أيضا أن الأم تلجأ إلى هذين النوعين من المداعبة ليس عن قصد مسبق للتفرقة بين الأولاد والبنات . . بل إنها تداعب هذا الطفل أو هذه الطفلة بالأسلوب الذى يعطيها درجة أكبر من الاستجابة . . ويعطى الطفل درجة أكبر من الابتسام والسرور . . فكأن الطفل هو الذى يفرض على أبويه نوع الملاعبة التى تدخل السرور إلى البرامج الجاهزة الموروثة فى رأسه وجهازه العصبى . . وليس العكس . .

ودعونا ننتقل إلى الصور التى نراها فى فناء المدرسة حيث يلعب الأطفال دون أى ضغط أو توجيه . . ففى السن بين الثامنة والعاشرة نرى الأولاد والبنات وقد تفرقوا بالتدريج . . ونرى مجموعة البنات وقد تجمعن فى أحد الأركان يخرجن من حديث إلى حديث آخر ولا يشبعن من تبادل القصص والأسرار والحواديت . .

وقد قام العلماء ببثات التسجيلات الصوتية لهذه التجمعات دون أن تشعر البنات بأن أحاديثهن يتم تسجيلها . . وإنك لتعجب للتوافه التى تصبح مواد خصبة لثرثرة لا تنتهى لساعات طوال . . وإذا تشاجرن فإنهن عادة ما يصلن إلى حلول وسط ترضى جميع أطراف النزاع . . وقد يظهر بينهن من تأخذ صفة الزعامة . . ولكنها نادرا ما تكون فى شكل بلطجة أو قوة بدنية كما يفعل الأولاد فى الجانب الآخر من الفناء . . فهناك ترى تجمعات الأولاد تتسابق

وتتنافس وتتصارع . . يدفع أحدهما الآخر . . وإذا ظهر بينهم من يأخذ صفة الزعامة فهو عادة طويل القامة خشن الحركات يفرض زعامته بقوة العضلات bully . .

ومن هذه الأمثلة فإننا نرى الأطفال يتبعون فى سلوكهم التلقائى ما يجدونه مُرضياً لتطلعاتهم ومشاعرهم الداخلية . . والتى تنبع أصلا من الطريقة المختلفة التى تمت بها توصيلات الجهاز العصبى فى الأولاد والبنات . . فنجد أن الأولاد ينجرفون تدريجيا إلى الألعاب والدراسات والأعمال التى تُنمّى عندهم حواس التفكير ثلاثى الأبعاد ومشاعر العدوانية agression والتنافس العضلى والفكرى وحب القوة والسيطرة . . بينما تنجرف البنات تدريجيا إلى الألعاب والدراسات والأعمال التى تشبع رغباتهن الداخلية فى روابط حميمة inter personal skills مع الأسرة والرفاق ومع جميع أفراد المجتمع . .

ودعونا هنا نستعرض ما نشعر به جميعا من اختلاف طريقة النقاش والحديث بين النساء والرجال . . ففى السنوات الأخيرة خضع هذا الجانب من العلاقات الإنسانية إلى عشرات من البحوث العلمية الموضوعية . . والبعيدة كل البعد عن التأثر بالعواطف أو السياسة أو الآراء المسبقة . . ووجد العلماء فى هذه البحوث نتائج تكاد تنطق من الطرافة والوضوح . .

فقد ثبت ما كان يشاع من أن المرأة تتمتع بحاسة سادسة تعطيها ميزة كبرى أفضل من الرجال . . فإذا وقف أحد فى اجتماع ما وقال إن ثلاثة زائد أربعة يساوى سبعة فإن معظم الرجال يأخذون هذه الجملة على علاتها كحقيقة fact وانتهى الموضوع . . أما معظم النساء فسوف تستخلص كل منهن معلومات أكثر بكثير من مجرد هذه الحقيقة . . فالمرأة يمكنها الإحساس

بالفروق الطفيفة فى طريقة ولهجة الحديث . . وارتفاع وانخفاض نبرة الصوت . . ووضع الجسم وإشارات اليد وتعبيرات الوجه أثناء الحديث emotional nuances and body language . . وكل ذلك بسبب قدرة أجزاء المخ المختلفة عندها على التواصل وتبادل التحليل . . وربط الحقائق بمعلومات وعواطف سبق تسجيلها فى مختلف أركان المخ . .

ومن النوادر هنا ما تتحاكاه الروايات والأفلام عن الزوجة تشعر بتصرفات زوجها التى يخفيها عنها . . وكأنه صفحة مفتوحة أمام عينيها . . وقد خصص أحد الكتب الحديثة كل صفحاته للحديث عن هذه الحاسة السادسة عند النساء . . !!

واسم الكتاب هو (Women's ways of knowing) . .

وقد أصبح لهذه الدراسة أيضا أهمية كبرى فى العلاقات لزوجية . . حيث تختلف طريقة التفكير . . وطريقة العواطف . . وطريقة النقاش conversational style بين النساء والرجال . .

وسوف أوجز هنا بحثا قيما قدمته مجلة ريدرزدايجست العالمية فى عددها الصادر يونية ١٩٩١ كان عنوانه (لماذا يعجز الرجال والنساء عن تبادل الحديث ? Why men and women can't talk) : يقول البحث إن الموجة اللاسلكية للإرسال التى تتحدث بها معظم النساء تختلف عن الموجة اللاسلكية للإرسال التى يتحدث بها معظم الرجال . . وإن كلا منهما يجب أن يكون مستعدا لتغيير موجة الاستقبال عنده لكى يتفهم ما يقوله شريك الحياة . . وقد تركزت معظم النتائج فى الحقائق التالية :

(أ) الحديث عند الرجل هو وسيلة لتقرير الحقائق وإثبات القدرة والمعرفة . . بينما أن الحديث عند النساء هو وسيلة وفرصة لتبادل المعلومات

والعـواطف . . وقـد يكون بابا للتـفـاوض فى نواحى لا صلة لها بموضـوع الحديث الأصلى على الإطلاق . .

(ب) عندما تشكو المرأة من ألم أو صداع فإنها لا تطلب من زوجها أن يذكر رأيه فى العلاج المطلوب . . سواء كان حبة أسبرين أو زيارة للطبيب . . كما تملى عليه طريقة الرجال فى التفكير . . بل إنها تطلب أصلا أن تشعر بالتعاطف sympathy والمشاركة الوجدانية فى الألم الذى تحس به أو الصداع الذى يضايقها . . وإذا حصلت المرأة على هذا التعاطف والمشاركة فإن الإحساس بالألم أو الصداع قد يتناقص تلقائيا إلى درجة كبيرة دون أى علاج . .



(عندما ينقطع الإرسال والاستقبال . . بين الأزواج . . !!)

وعندما يثور الزوج لأن الزوجة (تعمل من الحبة قبة !) فإن السبب الحقيقى هو أن عين المرأة ترى كل شىء فى هذه الدنيا مكتوبا أو مرسوما على أرضية وخلفية كبيرة من العواطف . . بينما أن عين الرجل لا ترى هذه الأرضية على الإطلاق . . ولا ترى إلا ما هو مكتوب أو مرسوم . .

(جـ) عندما يفتح الرجل جريدة الصباح ويغرق رأسه فيها . . أو يختلى بنفسه يقرأ كتابا . . أو يذهب إلى النادى لقضاء بعض الوقت مع الرفاق . . فإن المرأة قد تفسر ذلك على أنه رفض لها وابتعاد عنها rejection . . فإذا أثارت هذا الموضوع فإن الرجل يفسر ذلك على أنها تفرض نفسها عليه فرضا intrusion . . وتحرمه من بعض المتع البريئة التى يرى أنها من حقه . .

(د) يفسر كثير من الرجال طلبات الزوجات بأنها أوامر يتململون من قبولها أو الاستجابة لها . . بينما أن الزوجة فى حقيقة الأمر غالبا ما تعتبر أن ما تقوله هو اقتراحات قابلة للنقاش والتفاوض والحديث . . لو كان الزوج قد ضبط موجة الاستقبال عنده لتناسب طريقة الحديث عند النساء . .

(هـ) يحتل العمل . . (أيا كان العمل . .) المركز الأول فى وجدان الرجل مهما كان غارقا لشوشته فى غرام شريكة حياته . . فإذا تقبلت الزوجة هذه الأولوية وعبّرت عن ذلك فى صراحة ووضوح بكل وسائل الأنثى فى الإقناع والتعبير . . فإن الرجل سوف يفتح قلبه لها وسوف يحدثها كثيرا كثيرا عن هذا العمل وعن تفاصيل التفاصيل . . وهو ما تتمناه كثير من النساء . . أما إذا قللت من شأن عمل زوجها أو أظهرت عدم اهتمامها به فسوف ينغلق الزوج على نفسه فيما يخص عمله . . ويُغلَق فى وجه الزوجة جزءٌ كبير من وجدان الزوج . .

وإذا لم تتقبل الزوجة أولوية العمل على البيت فى عواطف الرجل . . أو

حاولت تغييرها . . سواء في رفق ودلال . . أو في شجار ونقار . . فإنها سوف تكون قد بدأت حربا خاسرة منذ البداية . . وسواء نجحت أو فشلت في تغيير هذه الأولويات عند رجلها فإنها سوف تندم على ذلك لا محالة . . طال الوقت أو قصر . .

(و) يلجأ كثير من الزوجات والأزواج إلى السكوت على مضض على أشياء لا تروق لهم . . وذلك لمجرد تجنب النقاش أو الشجار . . وقد يؤدى ذلك إلى أن تسير السفينة في هدوء بعضا أو كثيرا من الوقت . . ولكن مما لا شك فيه أن هذه السفينة تسير إذ ذاك في اتجاه كثير من الصخور . . وعندما تصل إليها فإنها سوف تغرق لا محالة . . وكان من الممكن تجنب مثل هذه النهايات لو اعترفنا جميعا بالاختلافات الجذرية بين النساء والرجال في طريقة عمل المخ والجهاز العصبى ووسائل الحديث . . ولو دخلت هذه المعلومات إلى مناهج الدراسة في فصول التعليم الثانوى . .

ويختتم البحث صفحاته بأنه من المؤسف حقا أننا نهتم بإعطاء طلبة وطالبات الدراسة الثانوية أكبر قدر من المعلومات عن الكون والشمس والقمر والأرض والبحار والغابات وجميع أنواع النبات والحيوان . . ثم نبخل عليهم بمعلومات أهم من هذا بكثير عن الطريقة الصحيحة أولا لاختيار شريك الحياة . . والطريقة الصحيحة ثانيا للتواصل معه أو معها إلى نهاية الزمان . . !!

الفصل الثانى عشر

المنافسة .. بقواعد ظالمة ..!!

عندما تسيطر على المرأة فكرة المساواة بأى ثمن . . فإنها تقتحم مجالات للعمل تظلم فيها نفسها إلى أقصى الحدود . . ويمكننى تشبيه ذلك بالبطل العالمى فى لعبة البريدج إذا دخل فى منافسة غير متكافئة مع رفاق يلعبون لعبة البوكر . . لقد دخل برجليه إلى موقف يلعب فيه حسب قواعد لم يشترك فى وضعها . . وسوف يرتبط نجاحه أو فشله بعوامل خارجة عن إرادته تماما . . ونادرا ما يمكنه الإمساك فيها بكل الخيوط . . لأن نفسية لاعب البريدج تختلف تماما عن نفسية لاعب البوكر . . فالأول يتمتع بذاكرة قوية . . وإحساس مرهف راقى . . بينما يتمتع الثانى بغريزة البحث عن القوة والسيطرة . . والخداع والمخاطرة . . ولا يستمتع بلعبته حقا إلا إذا اقتربت فيها درجات المخاطرة من النشوة التى يستمتع بها من يعشق تسلق الجبال . . !! وإذا رغب أى منهما فى إجادة اللعبة الأخرى فقد يمكنه أن يحاول ذلك بالمران والتدريب شهورا أو سنين . . أما بالنسبة للمرأة التى تدخل إلى مجالات للعمل لا تتلاءم مع تكوينها النفسى فسوف تكتشف أنها لن يمكنها تغيير هذا التكوين النفسى وهذه الطبيعة البشرية مهما طال الزمان . .

لقد رأينا التكوين النفسى للمرأة يجعلها مؤهلة تماما لجميع الأعمال التى تتطلب اقترابا حميما وتواصلا نفسيا مع الآخرين . . وأقرب مثال لذلك هو مجموعة الأعمال التى أدرجناها تحت عنوان (المهن الاجتماعية) فى صفحة ٣٨.

وإن التكوين النفسى والعصبى لمعظم نساء العالم يجعلهن غير مؤهلات تماما لنوعية الأعمال التى أدرجناها تحت اسم المهن الإدارية . . والمهن القتالية . . والمهن الهندسية والميكانيكية . . والمهن الأربعة التى يطلق عليها فى الزمن الحديث مهن رجال الأعمال . .

فبعض هذه المهن يستلزم أولا صفة التفوق فى طريقة التفكير ذى الأبعاد الثلاثية وهو ما يمتاز به مخ معظم الرجال دون معظم النساء . . والبعض الآخر من هذه المهن يستلزم درجات من المخاطرة والبحث عن القوة والسيطرة غير موجودة أصلا فى التركيب العصبى والنفسى لمعظم النساء . . وحتى بين الرجال فإن غرائز السيطرة والقوة تختلف عندهم اختلافا كبيرا . . وإذا زادت وفاضت عند بعضهم فإننا نجد هذا البعض مستعدا للتنازل عن كثير من صحته . . والكثير من صلاته الاجتماعية . . والكثير من سعادته الشخصية . . من أجل تحقيق هذا الهدف . . ولن نجد إلا ما ندر من النساء يمكنهن التضحية بالصحة . . والصلات الاجتماعية . . والسعادة الشخصية فى سبيل الوصول إلى القوة والسيطرة والجبروت . . ثم الدفاع عنها والحفاظ عليها كما يفعل بعض (وليس كل . . !!) الرجال . .

إن نجاح المرأة أو فشلها فى هذه الحالة يقاس أصلا بمقاييس الرجل . . وهو ظلم فادح لها . . تتحمل وزره داعيات حركات التحرير النسائية . . لقد نظرن إلى الحياة بمنظار واحد فقط اسمه المساواة مهما كان الثمن . .

فأصبح هذا المنظار وكأنه الغطاء الذى نضعه على عيون الفرس لكى لا ترى شيئا إلا الطريق أمامها . . فتسير وتسير وتسير . . دون أن تستمتع بما حولها من خضرة وأزهار وأطيار ومنظر بديع . .

وكلما أثيرت هذه المناقشات فإننا نجد داعيات التحرر النسائى (فى شكله الحالى المزعوم) وقد بدأن فى تلاوة قائمة من الأسماء . . تبدأ من الملكة حتشبسوت . . إلى الملكة كليوباترة . . ثم بلقيس ملكة سبأ . . وعروجا على القديسة جان دارك . . ثم مدام كورى . . ووصولا إلى مارجريت تاتشر فى بريطانيا وأنديرا غاندى وبنظير بوتو فى القارة الهندية . . ثم أخيرا تانسو تشيلر فاتنة السياسة التركية فى العصر الحديث . . إن هذه الأسماء لهى الاستثناء الذى يثبت القاعدة . . وإن مجرد تعداد هذه الأسماء وتكرارها لهو الرد الحاسم فى هذا الموضوع . . فهذه الأسماء تغطى فترة تمتد إلى أربعة آلاف سنة . . بينما لن يمكن لأية موسوعة أن تحيط بأسماء آلاف بل ملايين الرجال الذين تولوا مقاليد الأمور أو سلطات الإدارة فى جميع بلاد العالم خلال هذه القرون الأربعين . . ! !

إننا نعترف بوجود اختلافات عضوية جذرية بين جميع أعضاء الجسم عند المرأة والرجل . . ثم ننكرها فجأة عندما يتعلق الأمر بتركيبة العقل والمخ والأعصاب . . ولا يستند هذا الإنكار إلى حقائق موضوعية أو بحوث علمية . . بل إن الدافع الوحيد لها يكمن فى مجالات السياسة . . والنشاط النسائى والنقابى . . دون النظر إلى أية اعتبارات أخرى . .

وإننى أؤكد أن الإصرار على هذا الإنكار لا يزيد من حصول المرأة على المساواة . . فعلى حسب المعادلة التى تطرحها داعيات التحرر النسائى فإنه على المرأة أن تقتحم كل مجالات العمل بلا استثناء . . دون أى اعتبار

لمؤهلاتها الجسمانية والنفسية . . ومدى تناسبها مع كل نوع من أنواع العمل . . واشتراطاته الجسمانية والنفسية . . ولعمرى إن هذا ليحرمها تماما من أبسط أسس العدالة والمساواة . .

لقد حددت داعيات التحرر النسائى (فى شكله الحالى) مقاييس المساواة والعدل بأن تمارس المرأة كل أنواع العمل مدفوع الأجر . . waged jobs . . وكأن مقياس العمل الكريم الذى يرفع من قدر المرأة لتتساوى مع قدر الرجل هو أن تأخذ أجرا على ما تعمله . . ومن الذى قال إن العمل المدفوع الأجر هو مقياس المساواة والعدالة والكرامة . . ؟؟ وكلنا يعرف أنواعا من العمل مدفوعة الأجر هى أولا وأخيرا أحقر الأنواع . . وقد تكون أعلاها أجرا فى بعض الأحيان . . فهل يمكن أن يكون هذا مقياسا . . ؟! إن فى مبدأ الأجر المدفوع لإقرارٌ ضمنى بأن الأعمال التى لا يدفع لها أجر نقدى . . كالزوجية أو الأمومة . . لهى أعمال أقل قيمة وأقل قدرا . . ولست أرى أننى أحتاج إلى أى تعليق . .

بل لا ننسى أيضا أن المرأة أم بطبيعتها . . ولن يمنعها خروجها للعمل خارج البيت من محاولة الاستمتاع بأمومتها . . وتوثيق الصلة بينها وبين البنات والأبناء . . ولا يختلف اثنان فى الصعوبات اللانهائية التى تتكبدها المرأة لتعطى كلا من هذين المجالين حقه من حسن الأداء . . والخاسر الوحيد فى هذه المعادلة هى المرأة . . وهى التى فقدت كل جوانب العدالة والمساواة . .

لقد خصصت فصلا كاملا فى هذا الكتاب لأنواع من العمل والتجارة تصلح للممارسة من خلال المنزل . . دون حاجة للخروج إلا فيما ندر . . ويمكن لصاحب أو صاحبة العلم والمعرفة والخيال والجرأة أن تبتكر من هذه

الأنواع أشكالا لا نهاية لها. . وبعض هذه الأعمال إذا حالف صاحبها أو صاحبتها فيها التوفيق يمكنها أن تصل به أو بها إلى السمعة والشهرة والصيت. . وإلى أعلى درجات اليسر المادى والثراء. . وهى فى ذلك لا تختلف عن أنواع العمل خارج المنزل. . فالاجتهاد مطلوب فى جميع الأحوال. . والعلم مطلوب فى جميع الأحوال. . والاختلاف الوحيد هو أن التواجد الفعلى داخل البيت يعطى المرأة أكبر قدر من المميزات فى جميع جوانب حياتها. . سواء كانت عملا. . أو أمومة. . أو زوجية. . أو خيرا. . أو عطاء. . لنفسها. . ولأسرتها. . ولأصحاب البلد القادمون. . والذين سوف يمسكون زمامها خلال عشرين عاما على أكثر تقدير . . !!

مصادفة طريفة..
ومعلومات أكثر طرافة ..!!

استلفت نظرى مصادفة طريفة . . وهى بحث طويل عريض فى مجلة «نيوزويك» الأمريكية فى عدد ١٨ مايو ١٩٩٨ . . تحت عنوان (إنه عالم المرأة . . It is a woman's world) . . من صفحة ١٢ إلى صفحة ٢٧ . . أى خمس عشرة صفحة بالتمام والكمال . .

ويشتمل البحث على عدة إحصاءات . . وعدة مقالات لكبار الكتاب من رجال ونساء . . وموضوع البحث هو المرأة العاملة فى البلاد الغنية . . وبالتحديد فى أمريكا الشمالية . . وأوربا . . واليابان . . وأضافوا إليها روسيا أيضا . . على اعتبار أنها عزيز قوم ذل (!) . . كانت فى مصاف الدول الغنية قبل أن يحقنها لينين وستالين (عمداً مع سبق الإصرار) بجرثومة الشيوعية القاتلة . . وعلى اعتبار أنها الآن فى فترة النقاهة . . وفى طريقها إلى الشفاء . . !!

وقد عزّ علىّ أن يخلو كتابى هذا من تعليق على هذا البحث القيم . . وسهّلت لى دار الشروق العريقة . . (مشكورةً) . . أن أضيف هذه الصفحات الثلاث . . بعد أن دخل الكتاب إلى مطبخ الإعداد للنشر . .

لقد استغرق إعداد هذا الكتاب سنة كاملة من القراءة والبحث والتمحيص . . في الكتب العلمية والمجلات المتخصصة على أعلى المستويات . . وهذه أول مرة أرى فيها الكلام نفسه مشاراً في الصحف والمجلات التي تصل إلى أيدي العامة من البشر . . وخاصة في بلاد العالم الغربي بالذات . . وهذه هي نقطة الطرافة البالغة في هذا البحث الطويل . .

في صفحة ١٦ تقول دراسة من جامعة هارفارد بالحرف الواحد :

(A successful career for a woman often requires forgoing children ..) . . وترجمتها هي أن المرأة إذا اختارت النجاح المهني فإنها عادةً تضحي بالأمومة . . إما بالامتناع عن الانجاب . . أو بترك أطفالها يربون أنفسهم بأنفسهم . .

وفي صفحة ١٥ و ١٧ يعترف أربعة من رؤساء مجالس إدارة أربعة من أكبر الشركات الفرنسية والألمانية أنهم يتحايلون على قوانين العمل التي تساوي بين الجنسين . . بحيث يتفادون توظيف النساء . . ويقولون إنه في اللحظة التي تنجب فيها إحدى موظفاتهم فإنهم يعتبرونها عمالةً زائدة لا فائدة منها . . لأنها إذا كانت إمرأة طبيعية فإن اهتمامها الأساسي سوف يكون خارج نطاق العمل دون أدنى شك . . (ومن الطريف أن من هؤلاء الرؤساء الأربعة توجد امرأة تعمل رئيسة مجلس إدارة . . ولم يختلف رأيها في هذا المجال عن الرجال الثلاثة الآخرين . . !!) . .

وفي جميع المقالات التي تضمنها البحث نرى الجميع يتفقون على أن المصلحة المشتركة بين صالح العمل . . وصالح المرأة العاملة . . هو أن تكون مجالات العمل للنساء هي ما تضمن لهن العمل نصف الوقت فقط . . (أو

العمل من خلال منازلهن) . . حتى ولو كان ذلك بمرتبات أقل . . وبفرصٍ أقل للترقى إلى مستويات الإدارة العليا . .

ولا تنكر هذه المقالات بعض الأسماء لنساء وصلن إلى أعلى مستويات الإدارة والوزارة والحكم . . ولكنها تتفق جميعاً على أنهن الاستثناء الذى يثبت القاعدة . .

وفى صفحة ٢١ تورد المجلة عشرة إحصاءات . . يقول أحدها إن عشرة بالمائة فقط من الطالبات الجامعيات يخترن دراسة الهندسة . . فى مقابل ثلاثين بالمائة يخترن الدراسات الأدبية والفنية . . وثلاثين بالمائة أخرى يخترن دراسة الطب والتمريض ومهنة التدريس . .

وتعترف إحصائية أخرى بحقيقة خطيرة . . إذ تقول إن نسبة الأطفال الذين يولدون لأمهات دون زواج قد بلغ الثلث (٣٣٪ بالتمام والكمال . . !!) فى كل من كندا وفرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية . .

إن هذه الإحصائية الأخيرة لهى المؤشر الأهم لما سوف تكون عليه الحال إذا أخذت الأمور مداها حسب نظريات المساواة المزعومة . . والتى ليست مساواة بقدر ما هى ظلم فادح للمرأة وباقى المجتمع كله . .

يوجد فى داعيات الحركات النسائية صنفان . . صنف عاقل . . يقرّ بأن الأمومة هى الاهتمام الفطرى الأول لكل امرأة طبيعية . . ويبحث عن الوسائل التى ترفع من شأن المرأة فى هذا الإطار . . سواء فى مجالات الدراسة أو فى مجالات العمل . .

أما الصنف الثانى . . فهن المتطرفات . . من أتباع الآنسة سيمون دى

بوفوار . . وهؤلاء لا يعطون أى أهمية للاختلافات الجسمانية والذهنية بين النساء والرجال . . ويدّعون بأنها لا تؤثر إطلاقاً على مطالبتهن بالمساوة التامة فى كل شىء . . حتى على حساب العقل والمنطق . .

والأخطر من ذلك . . هو أنهم يعطون نوعاً من التبجيل والتقديس للحظة الاستمتاع بالحب . . ولحق المرأة فى التساوى فى هذه اللحظة مع استمتاع الرجل . . دون ما أى اعتبار آخر . .

وفى هذا الإطار من التفكير تصبح المخدرات وسائل مشروعة تساعد على الوصول إلى قمة هذه المتعة . . وفى هذا الإطار أيضاً يصبح الزواج عقبة تحول دون متعة الحياة . . ويصبح الأطفال عقبة أكبر وأكبر . . وبالتالى تصبح وسائل منع الحمل المختلفة حقا مكتسبا لكل بنت تصل إلى سن البلوغ . . بما فى ذلك الإجهاض . . أما إذا حدث ما ليس فى الحسبان وأصبحت البنت أمّا لطفل يكاد يقاربها فى السن . . وإذا تغلبت عليها عاطفة الأمومة . . فإنها إذ ذاك تقوم بتربيته وحدها على قدر ما تستطيع . .

إن الخاسر الأكبر فى هذا الإطار المتطرف من دعاة الحركات النسائية لهو المرأة نفسها . . أما الخاسر الأعظم فهو المجتمع بأسره . . فهاهم ثلث أطفاله يتلقون اليوم تربية عشوائية يكاد يتساوى نجاحها أو فشلها مع ضربات الحظ . . أو عجلة الروليت . . وفى خلال عشرين عاما سوف يصبح هؤلاء الأطفال هم رجال ونساء تلك المجتمعات . . وسوف يكون منهم المعلمون . . ورجال الشرطة . . ورجال الحكم . . ولنا أن نتصور ما يقود إليه هذا الطريق . . بكل ما فيه من كآبة . . وظلام . . ومهالك . . وحُفر ومطبات . .

والكارثة العظمى هى أن هذه الدول الغنية هى التى تقود اليوم التقدم العلمى والتكنولوجى . . وتقود أيضاً كل وسائل الإعلام والثقافة . . ويتسرب كل هذا تدريجيا كما يتسرب الهواء الفاسد . . إلى باقى شعوب العالم . . ويحاول تدريجيا أن يُجهز على كل ما تبقى من حضارات . . أو من قيم . .

كلمة .. ختام ..!!

فى أوائل القرن العشرين كانت نساء أوربا وأمريكا يتظاهرن من أجل الحصول على حق الانتخاب . . وكانت نساء المجتمعات الشرقية فى بركة راكدة . . وفى خبر كان . . ! !

كان أول حجر يُلقى فى تلك البركة الراكدة هو ما كتبه قاسم أمين . . يناشد فيه الأمة أن تُعيد النظر فى وضع المرأة فى المجتمع الشرقى . . وكانت أول خطوة يطالب بها هو أن يُسمح لها بالتعليم الابتدائى كمرحلة أولى . . وحاول إقناع قرائه بأن امتداد التعليم لها بعد ذلك دون حدود لا يتعارض مع التقاليد . . وسوف تعم منفعته ليس على المرأة وحدها . . بل على أسرتها أيضا . . وعلى المجتمع كله . .

بعد الحرب العالمية الثانية انقلبت كل هذه المفاهيم ١٨٠ درجة تقريبا فى كل بلاد العالم عموماً . . وفى بلاد الأمريكان على وجه الخصوص . . وأصبحت القاعدة العامة هى المساواة التامة الشاملة دون أية قيود . . بدءاً من التعليم بكل أنواعه ومراحله . . وانتهاءً بكل واحد من مجالات العمل . . دون أية تفرقة أو تمييز . . مهما كان نوع العمل . .

ودخلت إلى هذه التجربة الجديدة ثلاثة أجيال على الأقل من النساء . .

من الأربعينيات إلى الثمانينيات . . ومع الوقت وضحت لهذه التجربة نتائج وإحصاءات كانت تستلزم إعادة النظر والتفكير . . ودخل العلم الحديث إلى الساحة بكل ما استحدثه من وسائل وتكنولوجيا البحث والاختبار والإحصاء والكومبيوتر . . وكذلك ما استحدثه الطب من وسائل للفحص والقياس . . كانت كلها خيالاً بعيد المنال منذ أقل من عشرة سنوات . .

وأثبت العلماء بما لا يرقى إليه شك أن الاختلافات بين الرجل والمرأة لا تقتصر على الشكل الخارجي للجسم . . بل تمتد إلى كل خلية فيه . . بما فى ذلك تركيبة المخ والعقل والجهاز العصبي . . وطرق التصرف والتفكير . . وطرق التواصل مع الآخرين . .

وأثبت العلم أن هذه الاكتشافات هى حقائق موضوعية . . لا تُقلّل من شأن المرأة . . ولا ترفع من شأن الرجل . . بل بالعكس إنها حقائق يمكن استغلالها ببساطة فى تسهيل وسائل التعليم والتدريب للرجال والنساء . . وفى تسهيل الاختيار السليم لنوع العمل الذى يمكن لكل منهن أو منهم أن يتفوق فيه . . وأنها لو تم تدريسها لطلبة وطالبات المدارس الثانوية فسوف تساعدهم إلى أقصى حد فى اختيار شريك الحياة . . وفى استمرار التواصل معه أو معها إلى نهاية العمر . .

لقد حاولت جهدى فى هذا الكتاب أن أنقل للقارئ صورة حقيقية واقعية عن كل ما قاله العلم الحديث فى السنوات العشر الأخيرة عن هذا الموضوع . . بكلماتٍ سهلة . . تشبه حديث الأخ لأخيه . . وحديث البنت لأمها الحنون . .

وركزت جزءاً كبيرا من حديثى أيضا عن خطورة الصلة الحميمة بين الطفل . . وأمه بالذات . . دوناً عن أبيه . . ودوناً عن الأسرة كلها . . وكيف أن هذه الصلة الحميمة هى المنبع الأساسى لكل صفات الخير والفضيلة والعطاء . . وأيضا كيف أنها هى الطُعم الواقى الوحيد . . ذو المفعول

الأكيد . . ضد شرور كثيرة تتصيّد الطفل إلى أن يعبر سن البلوغ . . وكيف أن هذا النوع الراقى . . الحميم . . من الأمومة هو عملٌ دائب وتفرغ كامل full time - job يوما بعد يوم . . وليلة بعد ليلة . . دون أدنى شك . .

قد يشبه هذا الكلام بعض ما كان يقال منذ مائة عام . . ولكنه شبه ظاهرى فقط . . فقديما كانت المرأة جاهلة أمية ينظر إليها الرجل على أنها جنس أدنى وأقل شأنا . . أما ما نقوله اليوم فهو يختلف كل الاختلاف . . فهى امرأة متعلمة إلى أقصى درجات العلم . . وتحتل فى نظر المجتمع مركز النِدّية الكاملة للرجل . . ولكن فى إطار مفهوم جديد . . هو مفهوم التخصص . . المبنى على ما يقوله العلم الحديث . . ويكمن السر كله فى كلمة (التخصص) . . وهى وأيم الله لإنجازٌ كبير قدمه إلينا العلم . .

لا يختلف اثنان فى أن من الوسائل الحديثة للتعليم يوجد اختبارات خاصة تبين النواحى التى يمتاز فيها كل طفل . . سواء من الناحية الجسمانية . . أو من ناحية درجات التخصص المختلفة فى تركيبة مخه وعقله وجهازه العصبى . . وتوفر هذه الاختبارات . . للمدرسة . . وللآباء والأمهات . . مؤشرات سهلة تعطى هذا الطفل أو ذاك فرصة أكبر للتفوق والنجاح فى نوع معين من الدراسة . . ونوع معين من الرياضة . . ونوع معين آخر من العمل . .

إن ما قاله العلم الحديث عن الرجل والمرأة . . وما نقلته إليك قارئى العزيز فى هذا الكتاب ليس إلا صورة مكبّرة من الكلام نفسه . . شملت هذه المرة ليس فقط مرحلة الطفولة . . بل امتدت أيضا إلى عالم الكبار . . !!

وأملى أن أكون قد وُفّقت ..

دكتور حسين أمين

القاهرة . . ٤ مايو ١٩٩٨

محتويات الكتاب